

أ.د. عبد الكريم بكار

ربية الرشيدة (٣)

التواصل الأسري

«كيف نحمي أسرنا من التفكك»

الإسلام اليوم للنشر

● سعيت إلى أن تكون تعبيراتي سهلة وميسرة، قدر الإمكان، بلغة مبسّطة جداً.

● قد حاولت أن يشكل هذا العمل إضافة جيدة لما هو متداول من أدبيات التربية بين الآباء والأمهات.

م بعض المفاهيم والآليات
ب التي تساعد الأسرة على
التواصل فيما بينها



التواصل الأسري

«كيف نحمي أسرنا من التفكك»

أ. د. عبدالكريم بكار

التواصل الأسري

«كيف نحمي أسرنا من التفكك»

أ. د. عبدالكريم بكار

الطبعة الثالثة

1432 هـ - 2011

ح/ دار وجوه للنشر والتوزيع ١٤٣٠هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بكار، عبد الكريم

التواصل الأسري: كيف نحمي أسرنا من التفكك / عبد الكريم بكار

الرياض، ١٤٣٠هـ. ٨١ ص؛ سم

ردمك: ٨-٣٤٧٥-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- العلاقات الأسرية ٢- العلاقة الزوجية أ. العنوان.

ديوي ٣٠١,٤٢ ١٤٣٠/٦٣٤٤

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٦٣٤٤

ردمك: ٨-٣٤٧٥-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

التنفيذ الفني والنشر والتوزيع



دار وجوه للنشر والتوزيع

Wojooh Publishing & Distribution House

www.wojoooh.com

المملكة العربية السعودية - الرياض

ت: 4918198 فاكس: تحويلة 108

للتواصل والنشر:

wojoooh@hotmail.com



مؤسسة الإسلام اليوم

إدارة الإنتاج والنشر

المملكة العربية السعودية الرياض

ص.ب. 28577 الرمز : 11447

هاتف : 012081920

فاكس : 012081902

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإني لا أستطيع أن أخفي اغتباطي وسروري بهذا الوعي المتنامي لدى كثير من الناس بأهمية العودة إلى الأسرة بوصفها المحضن الأساسي لتربية الأجيال، وبوصفها المنبع الكبير للطمأنينة والسعادة والاستقرار.

شيء عظيم جدّاً أن يشعر الناس أننا نتعرض لغزو ثقافي ناعم في شكله، لكنه جبار ومخيف في مضامينه ونتائجه، وشيء عظيم جدّاً أن يشعر الناس بأنهم مسؤولون عن حماية أبنائهم، وعن إعدادهم للمستقبل، وأن يبذلوا الكثير من الوقت والمال والجهد في سبيل ذلك.

هذا كله مبعث سرور لي ولكم أيضاً، لكن من الواضح أن لدينا نوعاً من الفقر والعوز في فهم المبادئ والأساليب والوسائل التي يمكن أن تساعدنا في القيام بواجباتنا ومهماتنا الأسرية، إن كثيرين منا يخططون على نحو جيد لبيت الزوجية، ويبذلون جهوداً مقدّرة في الإنفاق على أولادهم، وتوفير بيئة جيدة لنموهم وراحتهم، لكن

الذين يحاولون امتلاك ثقافة تربوية جيدة قليلون جداً، وهم في العادة لا يلجأون إلى المستشارين إلا حين تقع في بيوتهم مشكلة كبرى، أو حين يشعرون أن أبناءهم سلكوا طريق الانحراف، وبدأوا يخرجون عن سيطرتهم. نحن في هذه الرسالة نود أن نقدم بعض المفاهيم والآليات والأساليب التي تساعد الأسرة على التواصل فيما بينها؛ لأن التواصل هو الذي يمكّنها بعد توفيق الله -تعالى- من أن تكون أسرة متفاهمة ومترابطة وناجحة، وسنكون مغبونين إذا وجدنا أسرنا تذوب بين أيدينا، مع أن هناك الكثير من الكتب والخبرات التي تساعدنا على الاحتفاظ بها خيّرة وسعيدة وقوية. وقد حاولت أن يشكّل هذا العمل إضافة جيدة لما هو متداول من أدبيات التربية بين الآباء والأمهات، وبما أن الخطاب هنا موجّه إلى شريحة واسعة جداً، وفيها المتعلم ونصف المتعلم... فقد سعيت إلى أن تكون تعبيراتي سهلة وميسرة، قدر الإمكان، لكن التعبير بلغة مبسّطة جداً عن معان لها بُعد فلسفي يشكّل نوعاً من الخيانة لتلك المعاني، وعلى كل حال؛ فإن محدودية إمكانات الإنسان -مهما كان- لا تسمح له بأن يكتب كتاباً لكل الأجيال والأزمان والطبقات، ولذا فإن محاولاتنا في هذا الشأن ستظل فجّة وناقصة، ولكن حسبي بذل الجهد، وأنني أسدد وأقارب قدر الاستطاعة.

والله المرتجى والمستعان، ومنه الهداية والتوفيق، وعليه التكلان.

د. عبد الكريم بكار

الرياض في ١١/ ٧/ ١٤٢٩هـ

ما الحوار؟

سوف يستغرب بعض الناس من هذا العنوان، وسيقول: ليس هناك بيت إلا وفيه حوار يومي حول كثير من القضايا، فلماذا نطالب بما هو موجود؟

لا شك أن كثيراً من الأسر تتحاور في أشياء كثيرة وبطريقة جيدة، لكنها -مع الأسف- لا تشّكل سوى نسبة ضئيلة.

بما أن الناس ذوو طبائع ورؤى وحاجات وأذواق وطموحات مختلفة، مما يعني أن تعاملهم مع كثير من شؤون الحياة سيكون مختلفاً، وهذا يعني أنه لا بد من تصادمهم وتعارض مواقفهم، ولهذا فإنهم في حاجة إلى الحوار، لكنهم لا يتحاورون، وإنما يتجادلون ويتناقشون، ويناظر بعضهم بعضًا.

الجدال والحوار لهما معنى واحد، وهو مراجعة الكلام وتداوله، هذا يقول شيئاً ويبدي رأيه في شيء، فيرد عليه جليسه، ويُبدي رأياً مختلفاً، فيقوم الأول بالدفاع عن رأيه، وبيان الخطأ الذي في كلام جليسه، وهكذا...

حين نتجادل فإننا نكون حريصين على التمسك بآرائنا وإقناع

غيرنا بها، وفي سبيل ذلك؛ فإننا نكون مستعدين للصياح ومقاطعة من يجادلنا، وبعضنا يكون مستعداً لتوبيخ من يجادله، ومستعداً للاستشهاد بشواهد وأدلة غير صحيحة، وسوق معلومات غير دقيقة ولا موثوقة، وبعضنا يظهر بمظهر المستمع، وهو في باطنه رافض لكل ما يسمع جملة وتفصيلاً...

باختصار: الجدال هو نوع من المقاتلة الكلامية، ومن هنا وجّهنا الله -عز وجل- إلى أن نجادل بالطريقة الحسنة والأسلوب اللائق حتى يؤتي الجدال ثماره، ولا يتحول إلى وسيلة لتأجيج الخلاف وتنافر القلوب، حيث يقول -سبحانه-: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وأرشد نبيه ﷺ إلى نحو ذلك، فقال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

الجدال: هو الشيء الفطري الذي نتجه إليه إذا لم نمتلك ما يكفي من المعرفة والتهذيب والصبر، فإذا ملكنا القدر المطلوب من هذه الأشياء؛ فإننا نكون قد بدأنا في الحوار.

الحوار فيه مراجعة ومرادَّة للكلام، وفيه مفاوضة، ويظهر خلاله الخلاف وتباين الآراء، لكن يكون فيه أمران مهمان:

الأول: هو أن حرص المحاور على إقناع محاوره بفكرته ورأيه وموقفه يكون أقل؛ لأنه يعتقد أن الحوار هو عملية (تثاقفية)، أضيء لك نقطة لا تراها، وتضيء لي نقطة لا أراها، فأنا عمليًّا أتعلم منك، وأنت تتعلم مني، أنا أعرض عليك أمراً، وأنت تعرض عليّ أمراً، ولي كامل الخيار في أن أقبل ما تقوله، وفي أن أرفضه، ولك مثل ذلك فيما أعرضه عليك، ولهذا فلا داعي لأن يؤذي بعضنا بعضاً.

الثاني: هو أن المتحاورَين يملكان شيئين أساسيين:

الوعي بالقضايا التي يتحاوران فيها، وبالهدف من الحوار، إلى جانب الخلق الحسن، والتهذيب الرفيع.

إنهما من خلال الوعي والتهذيب يسهمان في جعل الحوار مثمراً وراقياً وممتعاً في آنٍ واحد. أنا أعرف أن توفير هذه المعاني على نحو جيد داخل الأسر ليس بالأمر اليسير؛ لأن كلاًّ من الأب والأم يعتبر نفسه مسؤولاً عن سلامة أولاده وتوجيههم، كما أنه يشعر أنه صاحب سُلطة، وعليه بالتالي استخدامها إذا لزم الأمر، وهذا يجعل حواره مع الأولاد مختلفاً عن حواره مع زميل، أو صديق، أو منافس... لكن حين نعرف الأصول التي ينبغي أن يقوم عليها الحوار الجيد والناجح؛ فإن تلك المعرفة تساعدنا على أن نفعل أفضل ما يمكن فعله.

➤ نقاط للتذكر

- الذي يجري في البيوت غالباً ليس حواراً، وإنما هو جدال ومناوشة كلامية ليس أكثر.
- حين نتجادل؛ فإن درجة حرصنا على إقناع من يحاورنا تكون عالية جداً، وهذا يجعلنا نرفع أصواتنا، ونقاطع المتحدث وربما هاجمناه.
- الحوار هو جدال بالحسنى، وهو يعني شرح وجهة نظر شخصية أكثر من أن يعني الحرص على تغيير وجهة نظر الطرف المحاور.
- حين نكون واعين على نحو جيد بأهداف الحوار؛ فإن حواراتنا تكون مفيدة وبعيدة عن التشنج.
- يشكل الحوار مجالاً لامتحان أخلاق المتحاورين والكشف عن درجة تهذيبهم.
- على الأبوين أن ينسيا أثناء الحوار مع الأبناء أنهما أصحاب سلطة.

لماذا يجب أن نتحاور؟

إن الاختلاف في الآراء وفي الأذواق سُنة من سنن الله -تعالى- في الخلق، فكما أنك لا تكاد تجد وجهاً يتطابق على نحو تام مع وجه آخر، كذلك لا تجد شخصاً يتطابق في عقليته ومشاعره ورغباته مع ما لدى شخص آخر، ولهذا؛ فإن من حق الناس صغاراً وكباراً أن يختلفوا مع بعضهم، وحين يكون الاختلاف حقاً لبعض الناس، فإن تقبله يكون مطلوباً من أناس آخرين، ومن هنا وصف الله -جل شأنه- عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

الشورى في الإسلام ليست في المجال العسكري والسياسي، ولا في مجال العمل، أو نطاق الأسرة فحسب، وإنما هي أسلوب حياة، الصغير يسأل الكبير، والكبير يسأل الصغير، وكل منهما يسمع من الآخر، وينصحه، ويفاوضه ويجادله، ويحاول أن يصل معه إلى رأي مشترك، نعم هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب أن نلمسه في كل مجالات الحياة، ولعلي أوضح أهمية الحوار بين أفراد الأسرة والأضرار التي تترتب على فقدانه عبر المفردات التالية:

١- التربية تفاعل بين الوالدين وأولادهما، وكلما اشتد ذلك التفاعل على المستوى العاطفي والشعوري تأثر الصغار بمن يتلقون منه التربية. حين يتكلم الطفل بأريحية، ويسأل أباه وأمه عن الأمور التي لا يعرفها، وحين يجد أن من السهل عليه أن يتكلم بصدق وصراحة عن طموحاته وتطلعاته وآرائه ومشكلاته وأخطائه، حينئذ يحدث التغير في شخصيته، كما يتغير الملح حين نضعه في الماء، إنه يكتسب من خلال الامتزاج والتفاعل الكامل طبيعة جديدة، وهو لم يتأثر بالماء فحسب، لكنه أيضاً أثّر في الماء فحوله إلى ماء مالح بعد أن كان عذباً.

الرجل من خلال حواره مع زوجته يكتسب الكثير من المفاهيم الجيدة، وهي كذلك تكتسب منه، والأطفال يكتسبون من خلال الحوار مع آبائهم وأمهاتهم، ويستفيدون أيضاً من بعضهم، وما ذلك إلا لأن الحوار الجيد يتيح الفرصة للتفاعل، على حين أن الجدال والإصرار على الغلبة والتفوق وفرض الرأي، يجعل العلاقة سيئة، ويصبح التأثر والتغيير معها عسيراً.

قد رأيت ورأيتم فتياناً وشباباً لا يشبهون أباءهم وأمهاتهم لا في أخلاقهم، ولا في أفكارهم، ولا في سلوكياتهم، وذلك بسبب الهوة التي تفصل بينهم، فصاروا وكأنهم يعيشون في عالمين مختلفين، وكثيراً ما نسمع من يقول: سبحان الله! لا تظن أبداً أن فلاناً هو ابن فلان.

٢- التربية كما ذكرنا تفاعل، ولا تربية من غير تفاعل، والهدف من التربية بناء شخصية الطفل وإعداده للحياة، أو كما نقول -أحياناً-: (تكبيره بسرعة) حتى يستفيد من حياته إلى الحد الأقصى.

الحوار يؤمِّن التفاعل، ويؤمِّن أيضاً بناء شخصية الطفل، ويبصِّره

بما تحتاجه معركة الحياة من فهم وصبر واستعداد.

نحن إذ نحاور الطفل نُشعره بالندية، فهو إنسان يفهم ويتحمل مسؤولية كلامه، ويدافع عن آرائه، ويحاول وزن الكلام الذي يسمعه، وفحص مدى تقبله له، كما أن في إمكانه أن ينقده، ويوضح وجوه الخلل فيه... إننا حين نحاور الأطفال نقوم بالدرو نفسه الذي تقوم به (اللبوة) حين تلاعب أشبالها وتدربهم على الصيد، تصوروا معي كيف يكون الحال حين يقول رجل في الأربعين لابن العاشرة: ما رأيك في مخطط البيت الجديد الذي سنقوم بعمارته؟ وكيف يكون الحال حين تقول الأم الناضجة لابنتها ذات الأحد عشر ربيعاً: تعالي لنضع خطة حول استخدام التلفاز في بيتنا، ما الذي يحدث في مثل هذه الحالة؟ إن الذي يحدث: أن الطفل (كلامنا ينطبق دائماً على الذكور والإناث) سيشعر بالثقة بالنفس، وسيحسّ بأنه موضع احترام من قبل والديه؛ لأنه وجد الفرصة لتوضيح رأيه ورغبته، والدفاع عنهما، وهذا هو الذي يدفعه إلى أن يحترم الآخرين، ويساعدهم على أن يكونوا واثقين بأنفسهم، حيث إن الله -جلّ شأنه- قد أودع في نفوس الصغار والكبار قدراً كبيراً من النبل الذي يدفعهم إلى مقابلة الإكرام بإكرام، والعفو بعفو، والصبر بصبر مثله، نحن ندّرب الصغار على الفضائل كي يصبحوا أشخاصاً فضلاء، وكي يساعدوا غيرهم على أن يكونوا فضلاء، وبهذا تتغير ملامح المجتمع، فيصبح مجتمعاً فاضلاً. لا يشعر الصغار حين نحاورهم بالثقة بالنفس فحسب، ولكن يشعرون أيضاً بالأمان، إنهم طالما ارتكبوا الأخطاء، وطالما أنكروا حصول بعض الأشياء، وطالما أخفوا بعض الأمور، ولهذا فإنهم حين يعاملون على أنهم ناضجون، ويحاوَرون من قبل أهليهم في كل شيء يشعرون

بالأمان والاطمئنان، هذا طفل يقول لأخيه: هل علم أبوك بما جرى لنا أمس؟ فيقول: الظاهر أنه لم يعرف؛ لأنه لو عرف لحدثنا بذلك حين كنا معه في الصباح.

الحوار يجعل الطفل آمناً من المفاتحات والمفاجآت غير السارة؛ لأن الأسرة حين ينعدم فيها الحوار الجيد، أو يضعف تتراكم فيها الأخطاء والمشكلات، ولهذا فإن الأطفال يخافون من جلسة طويلة يُنبَش فيها القديم والجديد، والثابت وغير الثابت، والمتفق عليه والمختلف فيه من تصرفاتهم، وإن استمرار الحوار يقيهم من كل ذلك.

٣- يستفيد الأبوان من الحوار مع أبنائهم الكثير من الفوائد، لكن قد يكون من أهمها فائدتان أساسيتان:

الأولى: الاطلاع على ما لدى أبنائهم من طموحات ومشكلات ومفاهيم... لأن الأطفال لا يحسنون التعبير عن كل ذلك بطريقة عفوية تلقائية، لكن من خلال الحوار يصبح ذلك ممكناً، هذه بنت تعاني الأمرّين من زميلاتها في الفصل: واحدة تصفها بالغباء، وأخرى بالأنانية، وثالثة بالقبح... ولا تعرف كيف تتعامل معهن، وتخشى من أن يكون ما يقال فيها صحيحاً، فإذا هي فاتحت أباها أكد قول زميلاتها، وهذا سيعني بالنسبة إليها ما يشبه الضربة القاضية!

وهذا طفل لا يستوعب ما يقوله معلم الرياضيات، ولا يتمكن من حل الواجبات بطريقة مقبولة، وقد تسلّم إنذاراً من المدرسة بضرورة مراجعة أبيه لها، لكنه لم يسلمه الإنذار، ولهذا فإنه يعيش في خوف وقلق، ولو كانت مفاتحة الأهل ومصارحتهم أمراً سهلاً، وتتم حسب الأصول، لما تحملت البنت ولما تحمل الصبي كل هذا الضغط، ولأمكن للأهل حل مثل تلك المشكلات بيسر وبسرعة.

إن التربية الصحيحة تتطلب معرفة المربي بنفسيات وعقليات وهموم... من يقوم على تربيتهم، وأفضل طريقة لذلك هي إقامة علاقة منفتحة معهم، يتمكنون من خلالها من البوح بما لديهم بمنتهى السهولة.

الثانية: فهم الصورة الذهنية التي كوّنها أولادهم عنهم وعن منزلهم وأسرتهم، وهذه مهمة للغاية؛ لأن الاحتكاك الطويل بين أفراد الأسرة يجعل كل واحد منهم يشكل في عقله انطباعات عن باقي أفرادها، وهذه الانطباعات قد تكون خاطئة. فهذا طفل يعتقد أن أباه بخيل؛ لأنه يظن أنه يملك الملايين، وهو لا ينفق على أسرته كما ينفق والد صديقه (أحمد) الذي يعمل في وظيفة متواضعة، وهذه طفلة تعتقد أن أمها لا تهتم بها كما تهتم بنفسها، فهي دائماً مشغولة عنها بحضور المناسبات، وزيارة الصديقات، وهذا مراهق يعتقد أن والده طالما وعده بشراء سيارة إذا تفوق في دراسته، ولكنه لم يف له بوعده، وهذه فتاة مراهقة ترى أن إخوتها الذكور يثقلون كاهلها بكثرة الطلبات، ولهذا فهي تنتظر بفارغ الصبر اليوم الذي يتزوجون فيه ويخرجون من البيت، وهكذا...

هذه الصور والمعتقدات بقطع النظر عن صحتها وواقعيتها؛ تُضعف التفاعل بين أفراد الأسرة، وتجعل تأثير الأبوين في الصغار أقل مما ينبغي. لا شك أن الحوار المستمر بين الزوجين والأولاد سوف يسمح للأولاد أن يقولوا ما يعتقدونه، وسوف يسمح للأهل أن يطلعوا على الصورة التي كوَّنها أبناؤهم عنهم، فإذا كانت صحيحة، فإن عليهم أن يغيروا سلوكهم، ويبدأوا عهداً جديداً، وإذا كانت الصورة خاطئة قاموا بتصحيحها، ولفت أنظار الصغار إلى الواقع الحقيقي، وهذا مهم جداً، وأعتقد أن كثيرين منا سيصابون بالصدمة

من مدى التشوه الذي لحق بصورتهم في أذهان أبنائهم!

٤- لم يكن الحوار بين أفراد الأسرة في يوم من الأيام أشد أهمية منه في هذه الأيام، وذلك يعود إلى الغزو الثقافي الهائل القادم من الغرب، والذي لم يترك بيتاً إلا دخله، في الماضي كان الأبناء شديدي التمسك بالقيم والعادات المحلية، وكانت التحديات محدودة ومألوفة، كما أن الخيارات أمامهم في التنفيس عما في نفوسهم كانت أيضاً محدودة وضئيلة، أما اليوم فقد اختلف كل شيء، وصرنا فعلاً في منطقة عنق الزجاجة، حيث السباق المحموم بيننا وبين وسائل الإعلام بكل أشكالها... إذا لم نستطع أن نتواصل مع أبنائنا، وإذا لم يستطع أبناؤنا التواصل معنا، فإننا في الحقيقة نُسلِمهم للتيار غير الواعي وغير المستقيم في المجتمع، وهو تيار ليس بالصغير ولا بالضعيف، والأخطر من هذا: أننا نُسلِمهم لوسائل الإعلام الجبارة التي ترسخ الثقافة الغربية في مجتمعاتنا، وتغيِّر في طموحات الناشئة، وفي أخلاقهم، وفي نظرتهم إلى الأشياء، فالصغار أضعف من أن يميزوا بين الحقيقة والخيال، وقد يتحول الوهم لديهم إلى خداع مستمر، وأحياناً لا يكون لذلك الخداع نهاية. إن حاجة أبنائنا اليوم لا تقل عن حاجة شخص نفد وقود سيارته وهو في أعماق الصحراء... إلى سيارة تمر من جانبه، وتسعفه بشيء من الوقود قبل أن يفقد الأمل في الحياة. إن كثيراً من المراهقين والمراهقات قد يئسوا من تواصل أسرهم معهم، وبحثوا عمن يشكون إليه همومهم، ومن يثري عواطفهم ومشاعرهم، وقد وجدوا ذلك على شبكة الإنترنت، ولا يخفى على أحد اليوم أن لدينا عشرات الألوف من الفتيات اللواتي تورطن مع شباب في علاقات مشبوهة، وفي الطريق أعداد مماثلة،

وكل ذلك بسبب الفراغ العاطفي، وغياب الأهل الذين يرشدون ويساعدون ويُسعِدون. قسم آخر من الفتيان والفتيات وجدوا المنجد في الأصدقاء والصديقات، فقد تضاعف تواصل هؤلاء مع بعضهم مرات عديدة، وهذا لا يتم عبر الزيارات في المنازل، ولكن في المقاهي والمطاعم والاستراحات والعديد من الأماكن الأخرى، وهناك يجدون ما يفتقدونه في أسرهم من السماع والإنصات والتعاطف ومحاولة التفهم... ويجدون مع ذلك من يعلمهم تعاطي الدخان والمخدرات، ومن يقدم لهم الأفلام الخليعة ومقاطع الفيديو السيئة، وأشياء من هذا القبيل. هناك فيض كبير من الدراسات واستطلاعات الرأي التي تؤكد على أن لجوء الأولاد والبنات إلى الإنترنت وإلى الأصدقاء كان بسبب ما أشرنا إليه من الفراغ العاطفي، ومن فقد الأُذُن التي تصغي إليهم، والصدر الرحب الذي يتسع لمشكلاتهم وهمومهم، وهناك دراسات أيضاً كثيرة تشير إلى أن انحراف كثير من أبناء الأسر المحترمة والمتدينة كان بسبب رفاق السوء الذين تعرفوا عليهم وخالطوهم في غفلة من أهلهم.

لا أريد أن أتحدث أكثر وأكثر عن أهمية الحوار داخل الأسرة، لكن أود أن أقول: إن السواد الأعظم منا مقصرون في التواصل مع أبنائهم، وإننا جميعاً نستطيع أن نفعل أفضل مما فعلناه على هذا الصعيد، وإن الوعي بأهمية هذه المسألة يشكل الخطوة الأولى، وقد آن الأوان لنخطو تلك الخطوة.

• خلقنا الله تعالى مختلفين وعلينا الاعتراف بذلك وحتى أعترف بالاختلاف فإن عليَّ أن أعترف بحقك في مخالفتي في بعض الأمور.

• التربية تفاعل بين الأبوين والأبناء وكما أننا نؤثِّر في أبنائنا؛ فإن علينا أن نغير في شخصياتنا بسبب تفاعلنا معهم.

• حين نحاور أبناءنا ونستشيرهم في بعض الأمور فإننا نقويّ ثقتهم بأنفسهم وندربهم على ممارسة الحوار في كل شؤون الحياة.

• حين نتواصل مع الصغار؛ فإنهم يشعرون بالأمان من محاسبة مفاجئة غير سارة.

• نستفيد من حوارنا مع الأبناء العديد من الفوائد، منها فهم الطريقة التي يفكرون بها، والمشكلات التي يعانون منها إلى جانب فهم الصورة الذهنية التي كوَّنوها عنا.

• من فوائد التواصل مع الأبناء: حفظهم من التأثير المدمر لوسائل الإعلام.

• تشير دراسات كثيرة إلى أن انحراف أبناء كثير من الأسر المحترمة كان بسبب رفاق السوء.

لماذا لا نتحاور؟

هذا السؤال يطرح نفسه علينا بقوة، حيث إن ما ذكرناه من أهمية الحوار وقوة الأسباب الداعية إليه، يجعل من انعدام الحوار في كثير من البيوت شيئاً يستحق التساؤل بل التعجب! لكن إذا عُرِف السبب -كما يقولون- بطل العجب، فكيف إذا كان لدينا عشرون سبباً وسبب، وأكبر هذه الأسباب تأثيراً: هو عدم إدراك الآباء والأمهات لأهمية الحوار، بل عدم معرفتهم ببدهيات التربية والتنشئة الأسرية الجيدة، وهذا يعود إلى انتشار الأمية والإعراض عن القراءة وتخلف البيئة.

إن كثيرين منا يظنون أن الآباء والأجداد قد ربّوهم تربية مثالية، ولهذا فإنهم يقلّدونهم في كل طرقهم وأساليبهم التربوية، وهم في هذا قد وقعوا في خطأين:

الأول: حين ظنوا الكمال في الأساليب التربوية التي تمت ممارستها معهم؛ لأن الواقع ليس كذلك، وهذا لا يعود إلى عدم معرفة الآباء والأجداد بأصول التربية الصحيحة فحسب، وإنما يعود -أيضاً- إلى أنه ليس هناك تربية كاملة وتامة يمكن أن نستسلم لها.

أما الخطأ الثاني: فيتمثل في الظن أن هناك أساليب تربوية تصلح

لكل العصور، لا شك أن في التربية -كما في غيرها- ثوابت ومتغيرات، لكن هذا التقدم المذهل في وسائل الاتصال وفي انفتاح العالم بعضه على بعض قد جعل كل شيء من حولنا يتغير، وبالتالي؛ فإن المتغيرات في الأساليب التربوية صارت كثيرة جداً، ولعلي أسلط الضوء هنا على أهم الأسباب التي تجعل الناس يهملون الحوار، ويعرضون عنه على نحو شبه تام، وذلك حتى نشكل وعياً حولها، ونعمل على التخلص منها:

١- انشغال كل من الأب والأم، وقلة مكوثهما في المنزل، حيث إن متطلبات الحياة الحديثة قد زادت إلى حد جعل الكثير من الناس -رجالاً ونساء- يقضون ساعات طويلة في العمل، وأحياناً يكون عمل الزوجة صباحياً، ويكون عمل الأب مسائياً، وإذا أصاب الواحد منهما نجاحاً ظاهراً في عمله؛ فإن هذا يتطلب منه أن يكون يوم عمله مفتوحاً -أي غير محدد بساعات معينة-، وقد يتطلب منه كثرة الأسفار، فيلقي عبء الأسرة وعبء التربية كله على الزوجة، وفي كل هذه الحالات يشعر الزوجان أن الوقت يطاردهما، ولهذا فليس هناك وقت لغير الضروريات.

إن المتتبع لما يكتب في الإنترنت وفي المجلات الأسرية يلحظ تزايد شكوى الزوجات من انشغال أزواجهن عنهن وعن أولادهم، أعرف شاباً في الثلاثين لديه أسرة صغيرة، وقد نجح في عمله فعلاً، وهذا شيء جيد ومطلوب، لكن طبيعة عمله تتطلب منه أن يسافر مرة -أو مرتين- في الأسبوع، وهو يشعر أن بيئة العمل لديه ممتازة، المكان الجميل والهدوء ووسائل الاتصال وكل ما تحتاجه الجلسة الهانئة والمثمرة، ولهذا فإنه يأتي إلى مقر العمل حتى في أيام الإجازات،

ويجلس الساعات الطويلة حتى لو كان ما يعمله من غير متطلبات الوظيفة، لماذا هذا؟

يقول: المكان هادئ وجميل، ويساعدني على التركيز والتفكير والبحث والمطالعة... الشيء الذي لم يقله هو أنه وجد فيه فراراً من صخب الأولاد، ومطالب الزوجة، واستقبال الأقرباء والأصدقاء... الزوجة وحدها هي التي تتحمل صخب الأطفال، وتتحمل نتائج بعثرتهم لكل شيء في المنزل، وعليها إلى جانب ذلك أن تؤجل حتى الأشياء الضرورية؛ مثل: الذهاب إلى طبيب الأسنان، أو زيارة مكتبة، أو التواصل مع الأهل... الحوار مع الزوجة ومع الأطفال ومناقشتهم وتوجيههم كل هذا يحتاج إلى وقت، وأحياناً يكون طويلاً، ولكن صاحبنا وأمثاله ليس لديهم لا وقت قصير ولا طويل لمثل هذا، فالعمل والنجاح فيه وهدوء البال أمور أهم من الجلوس مع الأسرة! وكلما نجح المرء أكثر: وجد مشاغل أكثر تصرفه عن زوجته وأولاده، وقد لا يصحو إلا إذا اتصلت به الشرطة لتخبره بضرورة مراجعتها؛ لأن أحد أولاده عندهم!!.

٢- الإنسان كائن اقتصادي بفطرته وطبعه، ولهذا فإنه ينصرف بشكل تلقائي عن كل الأعمال والأنشطة التي لا يرتجي من ورائها ثمرة، أو شيئاً نافعاً، ومن هنا فإن الزوجين سوف يزهدان في الحوار فيما بينهما، وسوف يفعلان ذلك مع الأبناء، ويفعل ذلك الأبناء معهما حين يشعران أن الحوار سيكون عقيماً، وعبارة عن مضيعة للوقت، ومصدر لتكدير الخواطر... ومن أهم ما يدعو إلى ذلك: تباين المستوى الثقافي بين الزوج والزوجة، وهذه الحالة شائعة جداً في مجتمعنا، وليس من النادر أن تجد رجلاً يحمل درجة (الدكتوراة)

في علم من العلوم، وتكون زوجته شبه أمية، وفي حالة كهذه ينعدم الحوار بين الزوجين أو يكاد، وإذا وجد؛ فإنه يكون في الغالب في أمور صغيرة وشكلية، ومن الصعب على زوجين بهذه المواصفات أن يجدا أرضية مشتركة للارتقاء بأولادهما، والتفاعل معهم على نحو جيد، وطالما سمعنا من الأزواج من يقول: أكلمها من الغرب، وتكلمني من الشرق، وإذا أردت أن أتحاور معها وجدنا أنفسنا في حوار أشبه بـ (حوار الطرشان)؛ لأن المفاهيم وأسلوب التفكير بل حتى البدهيات التي عندي مختلفة عما عندها، ولهذا؛ فلماذا النكد؟ ولماذا تضييع الأوقات من غير فائدة؟!

في حالات أخرى نجد العكس: هذه فتاة تحضّر لدرجة الدكتوراة في اللغة الإنجليزية، وقد تقدم لخطبتها شاب يحمل شهادة عليا في الهندسة، وتقول إنه شاب مثقف وممتاز وخلوق، لكن أباها لم يوافق عليه لسبب واحد، هو: أن أسرة الفتاة من الأشراف، والشاب ليس كذلك، وقد أصرَّ الأب على تزويجها من شاب يحمل الثانوية، ومع أنه -كما تقول والدة الفتاة- قضى سبع سنوات حتى حصل على الثانوية إلا أنه لا يعجبه أحد، وينظر نظرة سوداوية لكل شيء في الحياة، ولا يكاد يرى أحداً أعلم منه! بدأت المشكلات بينهما منذ الأيام الأولى، وقالت البنت: مع أن الرجل فيه صفات جيدة كثيرة لكن يفكر بعقلية مختلفة تماماً عن العقلية التي أفكر بها، ولهذا فنحن في نزاع يومي وحول كل شيء، وشيئاً فشيئاً بدأنا نلجأ إلى (الصمت) بوصفه أفضل طريقة لإبقاء الحد الأدنى من الود بيننا!.

هذه المشكلة نفسها نجدها في العلاقة بين الآباء والأمهات وبين أولادهم، ففي بعض الأحيان يكون الأب قد تلقى تعليماً متواضعاً،

ويكون أولاده متقدمين في دراستهم، ونابهين بين أقرانهم، وقد يحدث العكس، فنجد الأب متعلماً، ونجد أبناءه معرضين عن العلم، وكم في عالمنا الإسلامي من فتيان وفتيات لم يكملوا دراستهم الابتدائية مع أنهم من أسر متعلمة. إن العلم يصنع الاهتمامات، ويصنع المعايير، ويدفع في اتجاه اكتشاف نوعية معينة من الملاحظات على سلوك الأبناء وعلاقاتهم، وحين يكون هناك تفاوت ثقافي كبير بين أفراد الأسرة، فإن اللغة التي سيستخدمونها في الحوار تكون مفقودة، ومعها يختفي الحوار نفسه.

٣- ينعدم الحوار في بعض البيوت بسبب بعض المعتقدات والمفاهيم التي يطبقها الأبوان في التربية، ومن الواضح أننا كلما خطونا خطوة إلى الوراء وجدنا ميلاً لدى الآباء -على نحو أخص- إلى التحكم بالأسرة، واتباع منهجية الحضور المهيب، وإصدار الأوامر التي يجب أن تنفّذ من غير نقاش... قد ورثنا عن أسلافنا هذه المعاني، حتى صار الحديث عن الحوار مع الأبناء يشكل نوعاً من التنازل غير المقبول، أو يشير إلى شيءٍ يمس الكرامة!.

بعض الآباء حوَّل البيت إلى ما يشبه (الثكنة العسكرية)، حيث يكون الكلام معه بحسب التسلسل: الأولاد الصغار يطلبون حاجاتهم من أخيهم الكبير، والأخ الكبير يتحين الفرصة المناسبه ليقدمها إلى أبيه، وهذا -بحمد الله- قد تراجع، لكن ما زال موجوداً في بعض البيئات!

إذا كان الأب يعتقد أن أي انتقاد أو مراجعة من قبل أولاده أو زوجته يحطّ من قدره، ويضع من شأنه، فلا شك أنه سيكون مصيباً إذا رفض أي شكل من أشكال الحوار؛ لأن الحوار لا يخلو في الغالب

من شيء من النقد لفكرة، أو سلوك، أو أسلوب، أو موقف للمربي، لكن موقفه هذا، لا يخدم التربية، ويتنافى أيضاً مع الخلق الرفيع الذي ينبغي أن يتحلَّى به المربي والمعلِّم الفاضل، وهذا هو نبينا ﷺ وهو المعصوم المسدَّد تجادله نساؤه ويراجعنه في بعض شؤونهن، فقد روي أن امرأة من الأنصار راجعت عمر بن الخطاب في شيء، فاقشعر من ذلك، وقال: ما كان النساء هكذا! قالت: إن أزواج النبي ﷺ يراجعنه، فأخذ عمر ثوبه وخرج إلى حفصة، فقال لها: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، ولو أعلم أنك تكره ذلك ما فعلت. [تفسير القرطبي: (١٨/ ١٧٩)].

إن حفظ الأبناء من الضياع يتطلب منا شيئاً من التنازل والتحمل في الكثير من المواقف؛ والأجر على الله؛ تعالى.

٤- نستطيع القول: إن التقدم التقني السريع قد أقام تحالفاً مع الثراء الواسع على إضعاف الروابط الأسرية، وتقليل فرص تواصل الأسر وتحاورها، وذلك لأن التقدم التقني في مجال الاتصال والبث الفضائي، قد وفّر لكل فرد من أفراد الأسرة إمكانية الانعزال عن أسرته، والتواصل مع العالم الخارجي. ادخل اليوم إلى أي بيت في أي مدينة عربية، وسترى صوراً عديدة من العزلة، أحياناً ترى الأسرة مجتمعة حول جهاز التلفاز لمتابعة مسلسل أو (فيلم)، وقد علاها الصمت المطبق، وبعد جلوس ساعة أو ساعتين في هذه الحالة، يتذكر كل واحد ما عليه من واجبات ومسؤوليات، فيسرع إليها، دون أن يجد الفرصة لأي حديث مع من حوله.

في أحيان أخرى يكون في غرفة كل ولد كل أدوات التواصل مع العالم الخارجي من الإنترنت والجوال والتلفاز، فهو مشغول بها،

ومتفاعل مع كل من هبّ ودبّ من الزملاء والأصدقاء، ومع من يعرف ومن لا يعرف، وإذا حدث أن دعا الأب إلى اجتماع لأمر ما جاؤوا متثاقلين ومستنكرين، وكأنهم يشعرون أن ذلك الاجتماع سوف يقطع عليهم الاستمرار في متعهم الخاصة والمنوعة!

أما الثراء؛ فقد كانت مساهمته في إبعاد الأبوين عن الأولاد من نوع آخر، حيث يشعر كل واحد منا أننا نتعرض لاجتياح تيار شهواني، يقوم على المتعة والتسلية، وإرضاء المزاج، ودغدغة العواطف بكل طريقة ووسيلة ممكنة، وإن المال قد ساعد على توفير السائق الذي سيوصل الأولاد إلى المدرسة، وتوفير الخادمة التي ستقوم بكثير من مهمات الزوجة في تنظيف البيت وإعداد الطعام، إلى جانب توفير المربية التي ستجلس مع الأطفال وترعاهم وتقوم بدور أمهم وأبيهم! أما الأب؛ فإنه مشغول بتنمية ثروته في الصباح، وفي الاستمتاع بالجلوس مع أصحابه في المساء، أو يكون ممن يقتضي عملهم كثرة الأسفار، فيتغدى في بلد، ويتعشى في بلد، ويفطر في بلد ثالث.

هذه الصورة ليست وهمية، إنها صورة حقيقية، وأحياناً يكون الواقع أسوأ مما ذكرناه بالنسبة إلى شريحة الأغنياء. وقد دلت إحدى الدراسات التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية على أن الطفل يقضي قرابة خمس ساعات يومياً أمام التلفاز على حين أنه لا يتاح له الاجتماع مع والده سوى خمس دقائق!

قد لا نكون وصلنا إلى هذه المرحلة، لكنَّ كثيراً من الأسر متجهة إليها! ولهذا فإن علينا قبل أن نتحدث عن الحوار والمصارحة والتفاهم بين أفراد الأسرة أن نبحث عن فرصة للقاء والجلوس على إحدى الوجبات، أو في إحدى الأمسيات.

٥- بعض الرجال لا يعرفون المسؤوليات الأسرية والتربوية والأخلاقية التي تترتب على ممارسة بعض حقوقهم المشروعة، وعلى سبيل المثال؛ فإن الله -تعالى- أباح للرجل أن يجمع بين امرأتين إلى أربع نساء، وفي هذا حكمة بالغة، وحل لإشكالات، ومراعاة لظروف خاصة كثيرة، كما أن النبي ﷺ حث على كثرة التناسل، كما هو معروف ومشهور، ولا شك في أن بعض الناس يوفّقون للعدل بين زوجاتهم، كما يوفّقون إلى تربية أولادهم والعناية بهم، وإن كانوا عشرين أو ثلاثين، لكن السؤال هو: هل هؤلاء يشكلون الشريحة الكبرى، أو يشكلون الأقلية؟ أنا لا أستطيع أن أُصدر حكماً عاماً، ولا أحيط بكل الأوضاع في مختلف البلدان، لكن لا يخفى أن هناك من لا يفكر في مسؤولية العدل بين الزوجات، وأداء حقوقهن على النحو المطلوب، كما أن هناك من لا يشغل نفسه في التفكير في توفير الوقت المطلوب لمجالسة عشرة أو خمسة عشر من الأولاد، إنه يفكر في متعته الشخصية وفي تلبية رغبته الجامحة للتجديد والتغيير أكثر من أي شيء آخر!. بعض الرجال قد حولوا بيوت زوجاتهم إلى ما يشبه ساحات الحرب، فهم ينتقلون من معركة إلى معركة، ومن منافرة إلى منافرة، وأولادهم يشعرون بالكثير من الجفاء تجاههم بسبب ما يسمعونه من أمهاتهم عن ظلم آبائهم وإهمالهم وتقصيرهم ومحاباتهم لامرأة على حساب أخرى، وأولاد زوجة على حساب أولاد زوجة أخرى، ومن الطبيعي حين تُسمَّم الأجواء بالغيبة والنميمة، والشكوى من الظلم، وسوء المعاملة، وسوء التصرف... أن لا يكون هناك أي مجال للحوار الهادئ والتواصل المفعم بالحب بين الآباء وأولادهم، وهذا ما نشاهده في الكثير من الأسر والبيوت المسلمة مع الأسف الشديد!

إذا وجد الواحد منا أسرته محرومة من فضيلة التواصل والتحاور، فإن عليه أن يبحث عن أسباب ذلك، فإذا لم يعرف لذلك سبباً؛ فلينصرف عن ذلك، وليبدأ بالتفاهم مع زوجته أولاً حول ما ينبغي عمله من أجل تحسين الجو الأسري، وتهيئته لحياة من نوع جديد، وعليه بعد ذلك أن يوثق علاقته بأولاده الكبار، ويطلب منهم المعاونة في مسألة تنظيم الاجتماعات الأسرية، وإغنائها بالعواطف الجميلة وبالرحمة والاهتمام، وأعلى درجات التفاهم والاتصال.

◄ نقاط للتذكر

- كثير من الأسر لا يجري فيها حوار جيد؛ لأن الآباء فيها متأثرون بطريقة تربية آبائهم لهم حيث كان الحوار في الماضي شبه معدوم!.
- انشغال الأبوين خارج المنزل بالوظيفة لم يترك لديهما وقتاً للتحاور مع الأبناء.
- التباين الشديد في المستوى الثقافي بين الزَّوجين يجعلهما يعتقدان أن تحاورهما سيكون عقيماً، ولهذا فإنهما يقللان من الحوار.
- يعتقد بعض الآباء أن حوارهم مع أبنائهم يشكِّل نوعاً من التنازل لهم مما يجعلهم يفقدون بعض هيبتهم.
- أقامت أدوات اللهو والتسلية الإلكترونية مع الثراء الواسع تحالفاً شريراً على إضعاف الروابط الأسرية.
- أفادت إحدى الدراسات: أن الطفل في الولايات المتحدة يجلس أمام التلفاز يومياً نحواً من خمس ساعات ويجلس مع أبيه نحواً من خمس دقائق!.

كيف يكون الحوار مثمراً ؟

الجواب على هذا السؤال أهم شيء في هذه الرسالة، وذلك لأن كثيرين منا صاروا يدركون اليوم أنه لا بد من اتباع أسلوب جديد في التربية وفي التعامل مع الأبناء، وصاروا يؤمنون أكثر بالشورى في الحياة الأسرية وبالحوار والتفاوض، لكن بسبب عدم توفر معرفة جيدة وخبرة كافية بأصول كل ذلك وآدابه، فإنهم كثيراً ما تنتهي حواراتهم إلى الشجار والنزاع وتباعد المواقف، ولهذا؛ فإنكم تعرفون الكثير من الحالات التي يقف فيها أحكم شخص في الأسرة ليقول: أرجو ألا نناقش هذا الموضوع الآن حتى لا يتعكر المزاج، أو حتى لا ننفضّ، ويقوم كل فرد إلى غرفته!!

ما ينبغي أن يقال في هذا الشأن كثير وكثير، لكن لأني عزمت على الاختصار؛ فإني سأقول أهم ما فيه عبر المفردات الآتية:

توفير بيئة للحوار:

الحوار احتكاك روح بروح قبل أن يكون اتصال عقل بعقل، وفي داخل الأسرة يكون الحوار أصعب بكثير من الحوار بين زميلين في مدرسة أو رجلين يتفاوضان حول عقد صفقة تجارية... وإن أسباب الصعوبة كثيرة؛ منها: أن المنزل هو مكان للحركة الطليقة والتصرف

التلقائي، والمتحاورون في المنزل صغاراً و كباراً يعرفون بعضهم بعضاً على نحو جيد، وقد شكَّل كل منهم عن الآخر ما يشبه الصورة النهائية: الأب يعرف طموحات ابنه، ويعرف نقاط الضعف لديه، وقد حاول مساعدته مراراً وتكراراً، فلم يفلح، فلماذا يحاوره؟ والأم تعتقد أن زوجها قد اتخذ قراراً في المسألة الفلانية، وهو لا يتراجع عن قرارته بسهولة، ولهذا فالجدال معه يعكر القلوب دون فائدة..، وهكذا وهكذا...

والأهم من كل هذا الشعورُ السائد بأن الآباء والأمهات حين يحاورون أولادهم فإنهم يتنازلون لهم، ويتفضلون بذلك عليهم، فالشيء المتداول هو أن الكبار أعرف من الصغار بما يُصلحهم، ولهذا فإن من الطبيعي أن تكون مهمتهم إصدار الأوامر والتوجيهات والتعليمات، وتكون مهمة الأطفال الامتثال والتنفيذ.

ومن هنا؛ فإن جعل الحوار الأسري ناجحاً ومثمراً يحتاج إلى بيئة من نوع خاص، وإيجاد تلك البيئة يتطلب الاهتمام والمثابرة والذكاء، وقبل ذلك كله الإشفاق والرحمة، فما الذي يمكن عمله في هذا الشأن يا ترى؟

١ - من المهم حين يجلس أفراد الأسرة للحوار في أي موضوع من الموضوعات أن يجلسوا وهدفهم الأول هو إذكاء العواطف النبيلة التي يحملها كل واحد منهم نحو الآخر، وتقوية الصلات الروحية التي تجمعهم، وذلك ضروري جداً لنجاح الحوار، ويأتي في المرتبة الثانية معالجة الموضوع، أو المشكلة التي عُقد الحوار من أجلها.

المقصود من هذا الكلام هو التأكيد على أن المهم ليس الوصول إلى نتائج محددة، لكن المهم زيادة تلاحم الأسرة وتعاطفها، وزيادة درجة الثقة فيما بينها.

بعض الآباء والأمهات يديرون الحوار مع أبنائهم وكأنه حوار بين أعداء، أو بين شركتين متنافستين، كل واحدة منهما تريد طرد الأخرى من السوق، وهذا يُلحق أضراراً كبيرة بالعلاقة الأسرية، ولا يؤدي إلى أي نتيجة.

٢- يحتاج الحوار المثمر إلى جو هادئ، وإلى استعداد نفسي من قِبَل جميع أفراد الأسرة، والذي يحدث بصورة مكرورة أن تتشاجر الأم مع أحد أبنائها، فتدعو زوجها وابنها الكبير إلى اجتماع طارئ لفض الاشتباك بينها وبين ابنتها أو ابنها، أو يسمع الأب خبراً سيئاً عن أحد أولاده؛ فيدعو الأم لحضور جلسة التحقيق مع ذلك الابن، وأحياناً يدخل الزوج المنزل وقد استنفد كل طاقته الروحية والبدنية، فتستقبله زوجته بقائمة فيها العديد من الطلبات الإسعافية العاجلة، أو تستقبله باحتجاج على سلوك أحد أبنائه، أو احتجاج على شيء طلبته منه في الماضي ولم يحضره -مثل جرة الغاز، أو زيت، أو ملح الطعام-، فوقعت في حرج شديد في شأن إعداد الطعام... وهي لا تدرك أن الوضعية التي فيها زوجها لا تتحمل الاستدعاء لحوار، أو فك اشتباك، أو تلبية أي طلب، وتكون النتيجة سلبية على صعيد العلاقة بينهما من غير حلِّ أي إشكال!.

حين يتحاور الناس وهم في حالة إجهاد، أو ملل، أو خوف، فإن الأفكار التي تُطرح تميل إلى التشاؤم والتصلب، وتأخذ جلسة الحوار طابع الرفض واليأس واللامبالاة بالنتائج التي تترتب على كل ذلك.

على الأبوين التماس الأوقات التي يكون فيها الجميع في حالة راحة ونشاط وخلو من ضغوط المواعيد والواجبات، ويُسْتَحْسن أن تفاجئ الأم الجميع بأكلة شهية يحبونها تكون على هامش الحوار أو

بعده، إن هذا يرسخ في أذهان الأطفال حب جلسات الحوار؛ لأنه سيصاحبها بعض الأشياء الممتعة والسارة.

بعض الأسر لا تجد وقتاً للحوار، فتجعل من اجتماع أفراد الأسرة على وجبة الغداء -أو العشاء- مناسبة للحوارات الساخنة، وتكون النتيجة ترك بعض أفراد الأسرة للمائدة قبل أن يشبع للضيق الذي وجده بسبب كلمة من هذا الطرف أو ذاك.

وقت الطعام وقت للسرور والسؤال عن الصحة والعمل، والأخبار الجميلة، وليس لمعالجة المشكلات.

٣- حين يتحاور أفراد الأسرة؛ فإن ذلك يعني: الاعتراف أن من حق الكبار والصغار أن تكون لهم رؤيتهم الخاصة، وإلى جانب الاعتراف: التوقعُ بأن لا يفضي الحوار إلى اتفاق وتوحيد للرؤية، وهذا كله يعني: أن على الأبوين وهما يحاوران الصغار أن يتحدثا ويتصرفا على أساس التكافؤ والندية، وهذا ضروري لنجاح الحوار أولاً، ولتشجيع الأبناء والبنات على المشاركة، وقول كل ما لديهم، كما أنه من وجه آخر يعزز ثقتهم بأنفسهم. أنا أعرف أن هذا ثقيل على بعض النفوس، ولكن من الذي يقول: إن تكاليف التربية الجيدة صغيرة أو خفيفة؟ إذا كنا نشعر بأن الحوار داخل أسرنا هو حوار مع أنداد؛ فإن علينا الابتعاد عن بعض التعبيرات، وذلك من نحو:

- إن عمرك وسنك لا يعطيك القدرة والخبرة للحديث في هذا الموضوع...
- اقتراحك تافه وسخيف، ولا يمكن تطبيقه.
- هذا السؤال يدل على أن الحوار معك عقيم.
- قلت لك أكثر من مرة: كن مهذباً في ألفاظك.

إننا ونحن نحاور الكبار أمثالنا نبتعد عن هذه التعبيرات، وإن علينا أن نبتعد عنها أيضاً ونحن نتحاور مع صغارنا، وأنا هنا لا ألغي مقام الأبوة، ولا أسلب الآباء والأمهات حق التوجيه والتأديب وإنزال العقوبة، فهذا من مهامهم ومسؤولياتهم، ولكن أقول: لكل مقام مقال، ومقام الحوار هو مقام تشاور وتفاوض وتعبير عن المشاعر الجميلة، وليس مقام سخرية أو توبيخ.

٤- ما دام في المتحاورين صغار وكبار؛ فإن وجود شيء من التوتر متوقع، ولهذا فإن من مسؤولية الكبار التخفيف من ذلك التوتر، وذلك عن طريق إضفاء مسحة الإيجابية والمرح والمزاح، هذا إذا أردنا للحوار أن ينجح، وقبل ذلك أن يستمر، وهذا يتم بالآتي:

- الثناء على فكرة جيدة يطرحها أحد الكبار أو الصغار، مثل: هذه فكرة عظيمة، هذه لفتة رائعة، هذه ملاحظة ذكية، هذا اقتراح عملي.. ومثل: أشكرك على سعة صدرك، أنا أعرف أني تحدثت كثيراً، وأنت صبرت كثيراً عليّ، أنا معجب بقدرتك على توضيح أفكارك.

- ابتداء الحوار بآخر طرفة مهذبة سمعها أحد المتحاورين، وختم الحوار بطرفة كذلك.

- إتاحة الفرصة لأبناء الثالثة والرابعة وما بعدها كي يتحدثوا ويبهجوا الموجودين بلثغاتهم الجميلة، ومقترحاتهم الغريبة والعجيبة.

- يحاول كل متحاور أن يتحدث عن موقف تورط فيه، وظهر فيه جهله، أو ضعف ذكائه، أو حبه للطعام -مثلاً-، أو فهمه المغلوط لكلام سمعه..

إن هذا يشيع البهجة بطريقة استثنائية، فالناس يميلون في العادة إلى من يساعدهم على أن يضحكوا منه.

إطلاق بعض الألقاب المحببة على الأبناء؛ مثل: تفضل يا سيبويه، ومثل: والآن جاء دور ابن سينا، ومثل: هات ما عندك يا حكيم الزمان.

٥- للمكان تأثير مهم في نجاح الحوار، ولا يعدله سوى اهتمام المتحاورين بما يقوله المتحدث منهم والإصغاء إليه، ومن الواضح: أن الأماكن المفتوحة -كالحدائق مثلاً- لا تساعد على تركيز الانتباه، كما أن الضجيج يجعل تواصل المستمع مع المتحدث صعباً، المكان المناسب هو المكان المغلق والهادئ، ولا بأس في بداية جلسة الحوار أن يقول قائد الجلسة -وقد يكون أصغر الأبناء سناً-: أرجو إغلاق التلفاز، وعدم الرد على أي اتصال هاتفي، ومحاولة التركيز على ما يقال هنا.

٦- الوصية الأخيرة بشأن البيئة المواتية للحوار المثمر، تتصل بالحرص على أن يظل الحوار حواراً، ولا ينقلب إلى جدال، وقد يكون الالتزام بهذا من أشق الأمور ليس على الأسر فحسب، وإنما على المثقفين الكبار، ولكن علينا أن نسدد ونقارب، وكما ذكرت في غير موضع؛ فإن الحوار يقوم على الاحترام المتبادل، وتكون اللغة المستخدمة فيه ناعمة مع الهدوء وبرودة الأعصاب، وحين يفقد الحوار هذه السمات يتحول إلى جدال، وعلامة ذلك مايلي:

- تكرار الحجج والادعاءات مرات ومرات، الكل يعيد ما يقوله، ويؤكد عليه، ويتلقى رداً مكرراً أيضاً.
- ارتفاع الصوت، ومقاطعة المتحدث ومهاجمته.
- انخفاض مستوى اللباقة واللطف والأدب في الخطاب المتداول.
- استخدام الكبار لألفاظ تتنافى مع جوهر الحوار، كما يفعل الوالد حين:

- يحذر ابنه قائلاً: استخدم السيارة بغير إذني إن كنت رجلاً، وسترى ماذا سأفعل بك.

- يستجوب ويحقق: أريد أن أعرف مع من كنت بعد العشاء، وما الذي كنت تفعله كل هذا الوقت؟

- يهدد ويتوعد بالعقوبة: أنت محروم من المصروف اليومي مدة شهر إذا لم ترفع من مستواك الدراسي خلال الأيام المقبلة.

- يصدر الأحكام القاطعة: لا يمكن لمثلك أن يحصل على تقدير ممتاز، أو لا يمكن لك أن تكون مهذباً في مخاطبة والدتك.

إن توفير بيئة جيدة لحوار مثمر يحتاج إلى خُلق عظيم هو الصبر، وإن الأطفال كلما كبروا احتاج الحوار معهم إلى وقت أطول، فإذا بلغوا طور المراهقة صارت اهتماماتهم وطروحاتهم أكثر تعقيداً، وصار التفاهم معهم بالتالي أعقد، ويحتاج إلى وقت أطول وأطول؛ والله المستعان في كل آن.

فن إدارة الحوار:

لا نستطيع أن نقول: إننا نتحاور على نحو جيد ومثمر إلا إذا كان بيننا شخص نعتقد أنه يدير الحوار، ويضبطه، ويوجهه، ويملك الحق والقدرة على إيقافه، ولهذا؛ فإن الحوار حين يكون بين الوالدين والأبناء، فإن من المهم أن يعرف الجميع أن فلاناً هو الذي سيدير الحوار، ويحدد الوقت لكل متحدث أو محاور، والشيء الطبيعي هو أن يقود الحوار الأب أو الأم، لكن يظل من المستحسن إسناد إدارة الحوار إلى واحد من الأولاد حتى يتدرب على ذلك، ويمكن أن يتم ذلك على نحو دوري، في كل جلسة يتولى قيادة الحوار واحد من أفراد الأسرة. بعض الآباء الأذكياء يسندون إدارة الحوار بين الفينة والفينة

-عن عمد- إلى المشاغب من الأولاد، وإلى أقلهم إيماناً بالحوار واهتماماً به، وكثيراً ما تكون النتائج رائعة، حيث يشعر ذلك المشاغب و(تلك المشاغبة) بتحمل مسؤولية نجاح الحوار، ويبدأ بحثّ المشاركين على التأدب بآداب الحوار الجيد، ويلتزم هو معهم في ذلك!

نحن لا نريد من خلال الحوار حل المشكلات، ولا نريد من خلال التأديب والتربية والتوجيه أن يكون لدينا أبناء صالحون فحسب، وإنما نريد أيضاً التأسيس لأب جيد في الغد، نريد أن ندّرب أبناءنا على ممارسة مهمات الآباء والأمهات الممتازين في المستقبل، وهذا يتطلب منا أن نحاورهم، وكأنهم رجال ونساء كبار وناضجون، ونعاملهم أثناء الحوار على أنهم أصدقاء، أو زملاء مهنة، أو مفاوضون لعقد صفقة رابحة، إن هذا هو الذي يجعلهم يعاملون أولادهم في المستقبل على أنهم ناضجون ومحترمون، وهذه قاعدة عامة: إذا أردت للشخص أن يكون محترماً، وأن يعاملك ويعامل غيرك باحترام، فعامله باحترام، وعلى أنه شخص محترم، مهما كان وضعه الحقيقي بعيداً عن ذلك.

وهذه بعض الملاحظات في مسألة إدارة الحوار الأسري:

١- إذا اتفقت الأسرة على أن توليك رئاسة إحدى جلسات الحوار، فاطلب منها الصلاحيات: قد أكون أصغركم أو أقلكم شأناً، لكن بما أنكم طلبتم مني إدارة هذه الجلسة، فأنا سوف أتصرف وكأني الخبير الوحيد بينكم، وحتى تستقيم الأمور، فأرجو الالتزام بتعليماتي، وإذا أخطأت في أمر، فأنا أرحب بعد انتهاء الجلسة بكل ملاحظاتكم وتوجيهاتكم.

٢- من المهم منذ البداية أن يتم تحديد مدة جلسة النقاش، ويُفضَّل إذا كان فيها أطفال دون العاشرة ألا يزيد الوقت المخصص للحوار

على نصف ساعة، كما أن من المفضّل دائماً ألا تبحث الأسرة في الجلسة الواحدة أكثر من موضوع، حتى لا تكون النتائج غامضة، وحتى لا يشوش فشل الحوار في موضوع على النتيجة الإيجابية للحوار في موضوع آخر.

منذ البداية يتم تحديد القضية التي تريد الأسرة نقاشها بدقة، ويكون الجميع موافقين على بحثها والحوار فيها، ولا شك أن من مهمات مدير جلسة الحوار الأساسية: أن لا يسمح للحوار بالانجرار نحو قضايا جانبية، هذه أسرة اجتمعت للبحث في سبب ضعف أحد أفرادها في (مادة الرياضيات)، وكيفية مساعدته، فأخذ الأخ الأكبر في التنديد بمدرسة ذلك الطفل وإدارتها، والحديث عن سوء التدريس فيها.. إن هذا حديث غير مفيد، وهو خارج عن دائرة النقاش، ولو أننا تأملنا في الكثير من حواراتنا لوجدنا أن أكثر من ٤٠٪ من الوقت الذي نقضيه فيها يذهب للحديث في أمور خارج موضوع الحوار، ومهمة مدير جلسة الحوار التقليل إلى أدنى حد ممكن من هدر الوقت في ذلك.

٣- توزيع الوقت المخصص للحوار بالعدل، ومن الممكن أن يعطي كل واحد من أفراد الأسرة مده خمس دقائق لتوضيح رأيه، وإذا كان الحوار يتعلق بمشكلة خاصة بواحد من الأبناء، فإن له أن يأخذ وقتاً أطول حتى يوضِّح كل الملابسات؛ بعد انتهاء الجميع من الحديث يعطى كل واحد فرصة للتحدث مرة أخرى مدة دقيقتين أو ثلاث دقائق، حتى يوضح وجهة نظره أكثر، أو يرد على وجهة نظر مضادة لها.

٤- إذا استطاع من يدير الحوار أن يحدد ما هو متفق عليه منذ

البداية؛ فهذا شيء جميل جداً، وذلك حتى لا يُستهلَك الوقت في الكلام على أمور ليست محل اختلاف، ومن المؤسف أننا على مستوى الأسر، وعلى مستوى الحوارات العامة كثيراً ما نتناقش الساعة والساعتين، وبعد ذلك يقوم من يقول: ألم أقل لكم: ليس بيننا خلاف، أو يقول: ألم أقل لكم: الخلاف شكلي، وسواء اتفقنا أم لم نتفق، فإن النتيجة واحدة! إذن لماذا تصايحنا وتعكرت قلوبنا، وقتلنا جلسة كان يمكن أن تكون جميلة وممتعة؟! هذه أسرة ترغب في شراء بيت جديد، وكانت قد تفاوضت فيما بينها حول كثير من التفاصيل المتعلقة بذلك، لكنها لم تتمكن من الوصول إلى شيء حاسم، فعقدت جلسة حوارية لإنهاء هذا الموضوع، ومنذ البداية قال قائد الجلسة: أرجو أن لا نناقش التفاصيل التالية؛ لأننا متفقون عليها: المنزل يكون في حي الإباء على شارع لا يقل عرضه عن عشرين متراً، ولا يبعد عن المسجد أكثر من مئة متر، وهو مكوّن من طابقين، ولا ندفع الثمن قبل بداية العام الدراسي. إن مثل هذا التوضيح لما هو خارج النقاش أمر مهم للغاية؛ لأنه يساعد على لملمة الموضوع، واختصار الوقت. إذا لم يتمكن المتحاورون من تحديد هذا في البداية، فإن قائد الجلسة يمكن أن يتوقف بعد ربع ساعة من النقاش ليقول: أفهم من كلامكم أننا متفقون على كذا وكذا، فإذا أقروا بذلك؛ لم يسمح لأي منهم بالتحدث فيه فيما بعد.

٥- من أصعب مهام إدارة الحوار: النجاح في إقناع المتحاورين بأن الحوار مفيد ومثمر؛ لأن المتحاورين إذا لم يشعروا بذلك، فإنهم لن يتعاملوا مع موضوع الحوار باهتمام وجدية، وربما ينسحب بعضهم من الحوار منذ بداياته؛ ليقول: الشيء الذي تتفقون عليه فأنا معكم فيه، وذلك لإيمانه بعقم الحوار، وأن المتحاورين لن يصلوا إلى أي نتيجة.

يستطيع مدير الحوار جعل المتحاورين يشعرون بفائدته، إذا اتبع الخطوات والملاحظات التي ذكرتها، وركزّ على التقدم الذي يحدث في الحوار من خلال الإشارة والتنويه بكل نقطة جديدة يتم الاتفاق عليها، مع الثناء على الأفكار الجميلة التي يطرحها هذا المحاور أو ذاك.

٦- في كثير من الأحيان يتحول الحوار من حوار بين أسرة إلى جدال بين الأب والأم، أو بين اثنين من الأولاد، أو بين البنت وأمها، وباقي أفراد الأسرة صامتون، ينتظرون توقف الاشتباك الكلامي الذي طال أمده، وهذا يحدث لأن أحد أفراد الأسرة تكلم بكلام فيه نقد لفرد آخر، أو تهجم عليه.. وإن مهمة مدير الحوار تقليل ذلك إلى الحد الأدنى، ومن الوسائل المفيدة في هذا: ألا يجلس الشخصان المتشاكسان وجهاً لوجه؛ لأن هذا يزيد من تمركز الحوار بينهما، ويثير الانفعالات المكبوتة، ومنها -أيضاً-: الطلب منهما الكف عن الكلام، إلى أن يتم لقاء خاص بينهما برعاية أحد الوالدين لتصفية الجدل الثنائي الذي ثار بينهما، ويمكن لمدير الحوار أن يطلب من كل واحد منهما أن ينظر إليه، وليس إلى الذي يتجادل معه.

إن من المألوف جداً أن ينتهي الحوار وقد نشأت علاقة عداء وخصام بين بعض أفراد الأسرة، وقد تستمر تلك العلاقة مدة طويلة، وإن الرئيس الجيد لجولة الحوار يستطيع في كثير من الأحيان منع ذلك، وإذا كان المدير أحد الأولاد وعجز عن ذلك؛ فإن من المناسب أن يتدخل الأب أو الأم لمساعدته.

إن تخفيف حدة النقاش والعمل على خفض أصوات المتحاورين أمر جيد دائماً، وإذا صدرت كلمة فيها تجريح لشخص بعينه، فإن على رئيس الجلسة أن يطلب منه سحب تلك الكلمة والاعتذار عنها،

وإلا؛ فقد يكون عدم الجلوس للحوار أفضل وأسلم.

في بعض الأحيان يتبع الأبناء والبنات مع بعضهم أسلوب الهمز واللمز الخفي، ومع أن هذا قد يأخذ طابع المزاح -أحياناً-، إلا أنه في كثير من الأحيان يكون جاداً جداً، ومعبراً عن احتقان في الصدور، هذه فتاة متّهمة من قِبَل أسرتها بالبخل الشديد، وبالحرص الواضح على مصلحتها الشخصية، وأثناء جلسة الحوار، ينظر إليها أخوها بتركيز، ويقول: الحمد لله ما عندنا في أسرتنا بخيل ولا أناني، وما يقال عن بعض الناس ليس صحيحاً... طبعاً المهم هو موقف الفتاة، فإذا تأذت من هذا كان على مدير الجلسة منع ذلك، وطلب الاعتذار من الأخ لأخته. إن رفع مستوى الحوار وجعله خالياً من الكلمات غير المهذبة والتعبيرات غير اللائقة من مسؤولية جميع المتحاورين، وعلى رئيس جلسة الحوار أن يحث المتحاورين على الكف عن التكرار، والتحدث في البدهيات حتى لا يسأم المتحاورون، وحتى يظل الحوار مرموقاً.

٧- الوضوح في الأفكار، وفي الرؤى، وفي الحديث، والحوار.. يشكل فضيلة من الفضائل الكبيرة. الأطفال والمراهقون يتفوهون في كثير من الأحيان بكلمات، لا يعرفون مدلولاتها ومراميها، بل إن بعض الكبار يفعل ذلك، ومن هنا؛ فإن من مسؤوليات مدير الحوار أن يؤكد على أن يتحدث كل واحد من المتحاورين بلغة واضحة، وأن يتأكد من أنه يعرف معنى ما يقول، ويعني ما يقول: إذا قال أحد أفراد الأسرة: إن مدرسة أختي فلانة ضعيفة في التعليم، ولا تهتم بتربية الطالبات وتوجيههن، ولهذا فينبغي أن نعمل على نقلها منها، فإن على رئيس جلسة الحوار أن يسأله عن معنى قوله: إن مستواها في التعليم

منخفض، وهل هذا بالمقارنة مع مدارس أخرى، أم أن لديه مقياساً مستقلاً؟ وما الدليل على أن المدرسة لا تهتم بتوجيه الطالبات؟ ثم ما التوجيه الذي يعنيه؟

مثال آخر: أسرة تجتمع لتتدارس في أسباب كثرة غياب أحد أفرادها عن المنزل، وأسباب تأخره في العودة يومياً، وأثناء تداول الحديث يقول أحد الأبناء: إن أحد أقربائنا هو السبب في ذلك، وهو الذي يُغري أخي بالتأخر، وإن عواقب ذلك يمكن أن تكون سيئة في المستقبل.

هنا يسأل الأب: من هو هذا القريب؟ يقول الابن: قريب، من هو هذا القريب؟ لا أستطيع أن أذكر اسمه، لماذا؟ لأنه قد يؤذيني، هنا لا بد من التأكيد له أن الكلام الذي يقال في هذه الجلسة -بل كل ما يجري في المنزل- لا يمكن أبداً أن يسمع به أحد، وإن عليه أن يذكر اسم الشخص الذي يعنيه حتى يتم العمل على حل المشكلة.

في أحيان كثيرة يقول أحد الأبناء: لا أريد لأخي أن يذاكر دروسه مع ابن الجيران، وحين يقال له: لماذا؟ يقول: لأنه شخص غير جيد، لماذا هو غير جيد؟ هو غير جيد، وبعد الإلحاح عليه يقول: هو متعجرف، أو لا يحترم أبويه، ولهذا؛ فإني لا أريد لأخي الصغير أن يجلس إليه، ويتبين للأسرة أن هذا غير صحيح، وأن ذلك الفتى على خلاف ما قيل فيه.

نحن حين نتحدث ونتحاور ننقل كثيراً من المعاني عبر المفردات اللغوية، واللغة أداة قاصرة وغير مكتملة، وسيطرة الناس عليها في الغالب تكون ضعيفة، ومن ثم فإن الخطأ في استخدامها دائماً وارد، وإن المزيد من الشرح والتوضيح يساعدنا على التقليل من الوهم وسوء الفهم.

٨- الملاحظة ما قبل الأخيرة في إدارة الحوار ومهام مدير الحوار تتعلق باتهام المتحاورين بعضهم بعضاً، حيث إن من المألوف في كثير من حواراتنا أننا لا نجد الدليل والبرهان الذي نستدل به، ولا نجد ما يدين من نحاوره، وبالتالي: فإننا نلجأ إلى المحاسبة على النوايا والمقاصد، وهذا مخالف لما وعظنا الله -تعالى- به من البعد عن الظن والتخمين، وما وعظنا به من التثبت والتبين، حيث يقول جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢]، ويقول -سبحانه-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

هذا طفل يقول: أنا لم أسرق قلم زميلي، وقد وضعته في حقيبتي وأنا غير منتبه إلى أنه ليس قلمي، فيرد عليه أحد إخوته قائلاً: أنت تكذب، وقد أخذته وأنت مدرك أنه ليس قلمك، ويدافع الصغير عن نفسه، ويكرر أخوه الاتهام..

في هذه الحالة فإن على رئيس جلسة الحوار أن يمنع المتّهِم من الكلام، وأن يقف إلى جانب الصغير، حيث إن الأصل هو الصدق والنزاهة، وحين يقول أي واحد من أفراد الأسرة: لم أقصد هذا، أو لم أظن كذا، أو لم انتبه إلى كذا، فينبغي أن يُصدَّق، وأن يتراجع المتّهِم عن اتهامه، الناس يقبلون من يخطئهم في بعض أفكارهم، ولكنهم يشعرون بالإهانة والعدوان حين يُتَهمون في نياتهم، ولهذا فإن علينا جميعاً أن نبتعد عن الاتهام إلا إذا كان لدينا أدلة وقرائن تدعم ذلك.

٩- الملاحظة الأخيرة حول إيقاف النقاش، وهذه نقطة مهمة؛ لأن الهدف الأساسي من الحوار هو التثاقف وإضاءة المسائل التي يجري الحديث فيها، وفي بعض الأحيان يكون الهدف من الحوار

الأسري هو حل مشكلة من المشكلات، أو الوصول إلى قرار معين، لكن هذا كثيراً ما يغيب، ويتحول الحوار من وسيلة للتواصل الروحي والفكري إلى أداة للتوبيخ والإهانة، ويتحول من وسيلة إلى معرفة الحق إلى وسيلة لمغالبة الآخرين وتعجيزهم، وإظهار ضعفهم، والتشكيك في قدراتهم، وفي هذه الحالة، فإن إيقاف النقاش يصبح مطلباً شرعياً أولاً، كما يصبح شيئاً يتطلبه الإبقاء على علاقة المودة والرحمة والاحترام داخل الأسرة، وقد شجع النبي ﷺ على عدم الإيغال في الحوار والنقاش عند الشعور بانحرافه عن مساره الصحيح، حيث قال ﷺ: «أنا زعيم -أي ضامن- ببيت في ربض الجنة -أي حولها- لمن ترك المراء، وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خلقه» [رواه أبو داود]، يمكن إذن إيقاف النقاش، وتأجيل اتخاذ القرار -إن كان هناك قرار يمكن أن يتخذ- إلى أن يحين الوقت المناسب.

قد يقول قائل: لماذا كل هذا الكلام حول إدارة الحوار؟ وهل تريد منا أن نحول المنزل إلى مركز ثقافي؟! أو كلية تجري فيها الحوارات المقننة والمنظمة؟! وهل هذا أصلاً ممكن في ظل الأمية المتفشية، والتخلف الحضاري؟

الجواب: نعم نريد أن تصبح بيوتنا -ولو بعد حين- أشبه بالمراكز الثقافية، ونريد لحواراتنا أن تكون راقية ومثمرة، وأن نمنحها كل ما نستطيع من العناية والاهتمام، ونحن المسلمين جديرون بهذا، وأولى الناس به.

نقاط للتذكر

• الحوار بين أفراد الأسرة أصعب من الحوار بين الأصدقاء أو زملاء العمل وذلك للعديد من الأسباب.

• ينبغي أن يكون الهدف الأساسي من الحوار هو إذكاء العواطف النبيلة التي يحملها كل واحد من أفراد الأسرة لباقي أبنائها.

• لا بد من اختيار الوقت المناسب لحوار أفراد الأسرة مع بعضهم وإلا كان عقيماً أو ضاراً.

• مخاطبة الصغار من قبل أبويهم باستخفاف واستهزاء تولّد لديهم النفور من مجالستهما.

• من مسؤولية الكبار في الأسرة: الثناء على الأفكار التي يطرحها الصغار، وتشجيعهم على المشاركة.

• نحتاج إلى كفاح متواصل كي لا يتحول الحوار إلى جدال، وتراشق بالألفاظ السيئة.

• الحوار المثمر يحتاج إلى مدير يديره وينظِّمه وإلا أصبحت جلسة الحوار نموذجاً للفوضى.

• ينبغي ألا يُبحث في جلسة الحوار أكثر من موضوع واحد وألا تزيد مدة الجلسة الواحدة على نصف ساعة، ولا سيما إذا كان فيها أطفال دون الثانية عشرة.

الحوار المخملي

الناس صناديق مغلقة، ومفاتيحها ألسنتها، وقد قالت العرب قديماً: «تكلموا تعرفوا»، ونحن حين نتحدث أو ندخل في حوار، نعبر عن المفاهيم والمشاعر والقيم والأخلاق التي تكوّن ذواتنا، ومع التقدم الحضاري الذي نراه اليوم على الصعيد المادي نجد أنفسنا في أمس الحاجة إلى تقدم روحي وخلقي، وتقدم في العلاقات الأسرية والإنسانية عامة.

(الحوار المخملي) مصطلح جديد أريد منه ذلك النوع من الحوار القائم على الأناقة واللطف والتهذيب الذي ينبغي أن يسود بين أفراد الأسرة، وهو مغاير للحوار الشعبي أو الحوار الموروث الذي ينطلق فيه الناس على سجيتهم دون اهتمام بالتفاصيل، ودون اهتمام بمشاعر المتحاورين وردود أفعالهم. والحقيقة أننا حين نكون في أعمالنا، أو في زيارة بعض الأصحاب، فإننا نستطيع أن نتكلف ونتصنع الهدوء والتهذيب والاستعداد الجيد للسماع، وذلك لأن مدة ذلك تكون قصيرة، أما داخل الأسرة؛ فإن الحوار المخملي أو الأنيق يعني أناقة الذات وسمو الأسرة، حيث إن من الصعب على المرء أن يتكلف

اللطف في ليله ونهاره، ولهذا؛ فإني آمل أن نتخذ من مقومات هذا الحوار وسيلة للارتقاء بالأسرة المسلمة وبكل فرد من أفرادها، فأساليب التعبير وأساليب الاستماع الجيد والراقي تؤثر مع الأيام في أفكار أصحابها ومشاعرهم، حيث يصبح السمو والرقة واللطف والمراعاة والتفاعل الإيجابي شيئاً من مكونات الذات وملامحها العامة.

ولعلي أشير إلى أهم ما يرتقي بالحوار الأسري العام إلى مرتبة الحوار المخملي عبر المفردتين الآتيتين:

■ المشاعر أولاً:

لا شك أن كل حوار يدل بوجه من الوجوه على وجود شيء من الاختلاف، وإذا جرى حديث بين شخصين دون وجود شيء يختلفان فيه، فإن الأولى أن يسمى حديثهما اتصالاً وتواصلاً.

في (الحوار المخملي) يكون هناك اختلاف بين أفراد الأسرة حول شيء ما، وتكون هناك رغبة في الوصول إلى رؤية مشتركة أو قرار موحَّد، لكن لا يكون هذا هو المطلب الأول، وإنما يكون التواصل والاندماج وتقوية الرابطة الأسرية هو المستهدف أولاً، ويكون هو الثابت والمستمر الذي يجري في ظله كل حوار، ومن ثَمَّ نجد درجة عالية من الرضا والتسامح والقبول المتبادل، وكأنه ليس هناك خلاف أو نزاع في مسألة من المسائل، ويمكن أن نرصد حرص الأسرة على مشاعر أفرادها في العديد من المواقف والسلوكيات، منها:

١ - الذي يحاور حواراً مخملياً يحرص على فهم ما يحرك مشاعر الذي يحاوره، فهناك كلام يبعث على السرور، وكلام يثير الاهتمام،

وثالث يثير الشك والغضب، وبما أن طبائع الناس متقاربة وموحدة في أمور كثيرة، فإن الحرص يجعلنا نفهم مشاعر من نحاوره من خلال قياسها على مشاعرنا: هذا طالب في المرحلة المتوسطة يقول لأخيه: أبشّرك قد كان ترتيبي الثالث على زملائي، فيقول له أخوه: هذا شيء عظيم، لكن كيف تغلبت على الضعف الذي كان لديك في مادة الجغرافيا؟ كلفني أستاذي ببحث ووعدني إذا أجدتُ فيه أن يحسِّن لي درجتي في الامتحان السابق، وقد كتبت البحث، وغيَّر درجتي، وانتهت المشكلة، هذا شيء مدهش، ويقوم إليه ويعانقه، وسيكون الاحتفال في المساء بهذا النجاح الباهر على حسابي.

إن جيمع الناس يحبون هذا الأسلوب في الحوار، ويرتاحون له، ماذا لو قال -أو كان تعليق الأخ على الخبر-: طلاب فصلك كسالى، ومن السهل لأي واحد أن يكون ترتيبه الثالث عليهم بل الأول؟ أو قال له: أساتذتكم متساهلون، ولو درّسك أساتذة مثل أساتذتي لكان مجرد نجاحك أمراً صعباً؟!

إن هذا اللون من الحوار يؤذي المشاعر فعلاً، ويدفع ذلك الفتى إلى الشك في حب أخيه له، بل إنه ربما قال في نفسه: (أخي يغار من نجاحي، ويحسدني، ولهذا؛ فإنه لا يريد أن يعترف به). ومن المؤسف أن هذا الأسلوب موجود لدى كثير من الأسر!

٢- مراعاة المشاعر تتطلب فهم البعد العاطفي في الموقف الحواري: هذه فتاة في الثامنة عشرة تقدم لخطوبتها شاب، وقرر أهلها عدم القبول به، لكن الفتاة أصرت عليه، وحاولت إقناع والدتها به، ونزولاً عند رغبتها تمت الخطوبة، وعقد القران وبعد شهر من تعرف تلك الفتاة على الشاب، وبعد سهر ليلة كاملة من الهم والخوف والتفكير والحيرة

قررت عدم المضي في مشروع الزواج، وجلست إلى أمها تحدِّثها بذلك والدموع تملأ عينيها.. الأم المتشربة لروح الحوار المخملي أدركت أن هذه اللحظة ليست لحظة عتاب على القرار الأول أو الثاني، ولا لحظة بحث عن الأسباب، وإنما هي لحظة تعاطف ومساندة ومواساة، فضمتها إلى صدرها، ومسحت على رأسها، وقالت: لا بأس يا بنية، إن التوقف عن إتمام الزواج هو أفضل بكثير من الفراق بعد سنة أو سنتين من ذهابك إلى بيت ذلك الرجل، وأنت ما زلت في مقتبل العمر، وإن شاء الله سيتقدم إليك الرجل الذي تستحقينه.. هذا كله مع أن الأم لم تكن موافقة على الزواج منذ البداية، لكنها تعتقد أن مؤازرة ابنتها في هذه اللحظة والوقوف إلى جانبها، أهم من أي حوار وأي بحث، وحين تمتص البنت الصدمة، وتهدأ، فإن من الممكن أن يكون هناك كلام آخر..

٣- مراعاة مشاعر من يحاورنا ويتحدث إلينا تتطلب أن نكون كرماء أسخياء في التفاعل معه؛ لأن ذلك يشجعه على الكلام، ويجعله يشعر بالثقة تجاه الأفكار التي يقدمها، هذا الكرم يتجلى في إشعارنا له بأننا متابعون له بدقة، وحين نسمع منه شيئاً جيداً؛ فإننا نثني عليه: هذا فتى جلس مع والده يحدثه عن رحلة مدرسية طويلة مع أساتذته وزملائه، وأخذ والده يبدي وجهة نظره حيال تقويم الابن لتصرفات بعض المعلمين، وكذلك ما شاهده من عادات أهل البلدة التي زاروها.. وحين كان الابن يتحدث كان يقول: (تمام)، (ممتاز)، (ماشاء الله)، (عظيم)، (رائع)، (عجيب).. كما أنه كان يهز رأسه في إشارة إلى أنه مستوعب لما يقوله ولده، وحين يسمع شيئاً لا يوافق عليه؛ فإن تعابير وجهه كانت تنطق بذلك، وكان الابن يتوقف ليقول لأبيه: ماذا ترى في هذا؟

إن هذه الدرجة من التفاعل تشجع على استمرار الحوار، وتشجع المحاور على البوح بما عنده.

بعض الناس تجد في وجوههم دائماً نوعاً من الجمود والبلاهة والتجهم، إنهم لا يعبرون، وتشعر وأنت تتحدث معهم، وكأنك تتحدث مع تمثال أو دمية، وهذا شيء مزعج للغاية؛ لأنه يجعل المتحدث والمحاور متوجساً من مفاجأة غير سارة تنتظره ممن يجلس أمامه! إن من المهم أن ندرك أن مابين (٧٠) إلى (٨٠)٪ من المشاعر والمعاني تنتقل خارج إطار اللغة المنطوقة؛ أي: عبر حركة الرأس واليدين، وتعبيرات الوجه، ووضعية المتحدث وهيئته.. ولهذا فإننا حين نتحاور وجهاً لوجه تكون طريقة الكلام أكثر إفادة ونقلاً للمعاني من الكلام نفسه. التواصل البصري بين المتحاورين أيضاً مهم، وقد قالوا قديماً: «العينان مغرفتا الكلام»، والحقيقة أن التقاء العين بالعين يساعد على تنظيم التفاعل الداخلي بين المتحاورين، ونحن كثيراً ما نخطئ في هذا الشأن، هذا أب يتحاور مع ابنه الكبير حول التخصص الذي يرغب في الالتحاق به في الجامعة، لكنه وهو يجادل ابنه لا ينظر إليه، وإنما ينظر إلى زوجته، وكأنه يطلب منها النصرة والمساعدة على ابنه، وهذا يشتمل على نوع من الإهانة للابن!

يشكو كثير من المراهقين أنهم في نظر آبائهم وأمهاتهم لا يملكون الحد الأدنى من الرشد، ولهذا فإن الاجتماع مع الوالد - على نحو أخص- لا يعني أكثر من حضور (حفلة) حافلة بالمواعظ والتوجيهات والملاحظات، وحافلة باللوم والعتاب، بالإضافة إلى عدد من الطلبات المحددة، مما يتعلق بالدراسة والأصدقاء ووقت الفراغ... ومع أن المراهقين ينقصهم الكثير من الرشد فعلاً، وهم

يميلون إلى المبالغة في معظم الأحيان، إلا أن ما يقولونه ليس بعيداً عن الواقع، وقد ألحقت هذه الوضعية بالعلاقة بين الأبوين والأبناء الكثير من الضرر، وأوجدت نوعاً من الجفاء المبطّن بينهم.

المربي المتشبع بأدبيات الحوار المخملي يقلل من المواعظ والتوجيهات إلى الحد الأدنى مراعاةً لمشاعر الشريك (زوج أو زوجة) والأبناء، وعوضاً عن ذلك يتحدث عن تجاربه الشخصية وتجارب غيره، ويوفِّر أولاً المناسبة والسياق لذلك، فإذا كانت هناك حاجة إلى حث الأولاد على الاهتمام بالوقت والاستفادة منه، فإن عليه أن يتحين الفرصة لذلك، وهي قد تتمثل في تحدث أحد الأبناء عن واحد من رجالات الأمة الكبار -مثلاً-، فتقول الأم في سياق بيان فضائله: أنا أعتقد أن جدية ذلك الرجل في استثمار وقته هي السبب في إنجازاته، وأنا من خلال معرفتي المتواضعة، لم أر عظيماً، ولم أقرأ عن عظيم لا يهتم بوقته، وهنا يمكن للأب أو الأخ الأكبر أن يقول: ما رأيكم من يستطيع أن يذكر لنا ثلاث وسائل تساعد الواحد منا على الاستفادة من وقته؟... هذا يعني أن الناضجين في الأسرة يعرفون ما الذي ينبغي أن يقال، ويحاولون إيجاد الفرصة له، وهكذا..

٤ - إن مراعاة المشاعر لا تعني مداراتها فحسب، وإنما تعني إنعاشها وتغذيتها أيضاً، ومن المهم إضفاء المرح على جلسات الحوار ولقاءات الأسرة، والمحادثات الثنائية بين الأبوين، وبينهما وبين الأولاد، وبين الأولاد بعضهم مع بعض، والحقيقة أنه إذا كانت المعرفة خبز الدماغ، فإن المرح هو قوت الروح، وقد دل بعض الدراسات على أن هرمون (الدوبامين) الذي يفرزه الجسم عند الضحك أو الشعور بالسعادة هو نفسه الذي يحفظ أجزاء المخ من التلف -أي يؤخر

تلفها-، ويجعله نشطاً، وكلما زاد إفراز الجسم لهذا الهرمون كان النشاط الذهني للإنسان أفضل، ومن هنا: فإن الحوار لا يمكن أن يكون مخملياً، كما لا يمكن إنعاش مشاعر الأسرة من غير شيء من المرح والسرور والضحك والمزاح في غير ما يسخط الله -تعالى-، وفي إطار التوازن والاعتدال: إحدى الأسر اتفق فيها الأب والأم على أن يقوم أحدهما -بالتناوب- بافتتاح جلسات الأسرة وحواراتها بطريقة ذكية تجعل الجميع يضحكون من قلوبهم، ومن اللطيف أن الأطفال الصغار صاروا يسألون: متى سنجلس؟ وإذا خلت افتتاحية إحدى الجلسات من الطرفة المعتادة، بدت على وجوههم الكآبة!

أسرة أخرى اتفق فيها الأبوان مع الجدة على توجيه رسائل للصغار عبر بعض الطرف والنكات، وكانت الجدة بعد أن يفرغ الجميع من الضحك تقول لأحفادها: من منكم يقول لي: ماذا فهمه من هذه الطرفة؟ والغريب أنه في معظم الأحيان كان من تعنيه الطرفة يشرحها بوضوح، وكأنه يقول: وصلت الرسالة.

أسرة ثالثة كان أحد أبنائها فكِهاً جداً، ويحفظ عدداً كبيراً من الطرف الذكية والممتعة، عوَّد أسرته كلما حمي فيها النقاش، وارتفعت الأصوات أن ينهض واقفاً، ويقول: بنبرة حادة: (توقّف) ثم يشرع في تقديم طرفتين أو ثلاث؛ فيضحك الجميع، ويتذكرون أن الأمور أبسط من أن نتحمس لها إلى درجة الغضب والشجار.

في التبسم الذي حثنا عليه ﷺ، وذكر أن فيه صدقة -أقول في التبسم صدقة ذات وجهين: فهي صدقة على الذات؛ لأن المرء حين يضحك ينفع نفسه، ويخلصها من وطأة الكآبة، وصدقة على المتحاورين والمتحادثين، حيث يُدْخِل عليهم السرور والمتعة.

٥- في الحوار المخملي يكون هناك حرص من الجميع على عدم إيقاع أي فرد من أفراد الأسرة في الحرج، من خلال النقد اللاذع، أو الكلام الجارح، أو أي تصرف آخر، وذلك لأن الموقف الحواري -كما أشرت من قبل- ليس موقف تأديب، ولا معاقبة، ولا انتقام أو تشهير، الموقف هو موقف تواصل وتعميق للمشاعر النبيلة التي تتبادلها الأسرة فيما بينها، مع محاولة بلورة بعض الرؤى والمفاهيم المشتركة.

يمكن أن نقول: إن لدى معظم الناس نزوعاً عميقاً إلى إحراج غيرهم، ولعل من أوائل الإحراجات التي تواجه الطفل ابن السنتين السؤال التقليدي: من تحب أكثر (البابا) أو (الماما)؟ ويكون كل منهما موجوداً، والذي يحدث هو أن الطفل ينظر في وجه أمه ووجه أبيه، وكأنه يمنح نفسه الفرصة للخروج من المأزق، وفي الغالب يتمكن من ذلك إما من خلال الصمت والتجاهل، وإما من خلال قوله: أحب أبي وأمي وجدتي...! وبعد أن يكبر الأولاد، ويدخلوا طور المراهقة تتعقد المسائل، ويميل الأبوان من أجل فهم ما يجري إلى الإكثار من توجيه الأسئلة المحددة والمغلقة، أي الأسئلة التي لا يحتاج جوابها إلى شرح، ولا خيار في الجواب عنها: قل: (حصل، أو لم يحصل)، (نعم أو لا)...

في الحوار المخملي تكون (النعومة) هي سيدة الموقف، وحين تحدث تساؤلات من الكبار أو الصغار؛ فإنها تكون مفتوحة، ويكون في الجواب عنها سعة وخيار: الأب موجهاً الخطاب للأم: ما سبب انزعاج جيراننا منا يا ترى؟! أو ليس هناك سبب؟ أو ليس هناك انزعاج؟ الأم: الأمور طبيعية، وأنا لاحظت أنهم لا يحبون كثرة

المخالطة لجيرانهم، على خلاف ماكنت أظن، وينتهي الموضوع عند هذا الحد، مع أن الأب يعرف أن الجفوة الحاصلة هي بسبب سوء تفاهم بين زوجته وجارتها.

إن الخوض في التفاصيل الدقيقة في الحوار حول أي موضوع كثيراً ما يسبّب الحرج لبعض الحاضرين، ولهذا كان (التغافل) والإغضاء من صفات النبلاء، وهو شيء نتعلمه من نبينا ﷺ، حيث قال -سبحانه-: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾، إنه أسرَّ إلى حفصة -رضي الله عنها- ببعض الأمور، واستكتمها إياها؛ فأخبرت بها عائشة -رضي الله عنها-، فعاتب ﷺ حفصة ببعض ما قالته لعائشة، وأعرض عن البعض الآخر، وقد قال الحسن البصري: «ما استقصى كريم قط».

في الحديث المخملي يتجنب المحاور النقد الذي يجرح أو يثير المشاعر، وإن بعض النقد يكون في الصميم، ويصيب مقتلاً! ومما هو شائع لدى كثير من الأسر (التقييم) السلبي للصغار والكبار، فقد يتطرق الحديث أثناء بعض الجلسات الأسرية إلى حادثة كذب فيها أحد الأبناء كذباً واضحاً، فيقول له أحد إخوته: إن الكذب يا فلان قد صار عادة لك، وتبدأ الأم بمؤازرته وتعداد المرات التي كذب فيها، وبعد ذلك يلقى الأب محاضرة في بيان خطورة الكذب... هذا الأسلوب هو الذي ينفر الأبناء -ولاسيما المراهقين منهم- من الجلوس مع الأسرة، ويدفعهم باتجاه الشارع ورفاق السوء.

إن الصغار والكبار يرفضون نقد الذات، وينظرون إلى نقد الفعل على أنه أسهل، ويمكن هضمه: (أنت كذاب) هذه غير مقبولة، أما: (هذا كذب)؛ فإنه يمكن غض الطرف عنها.

في الحوار المخملي يتم الإعراض عن الحادثة التي كذب فيها أحد الأبناء على نحو كلي، وفي جلسة خاصة يتحدث الأب أو الأم مع الصغير بما هو مطلوب ومناسب. هذه أسرة لديها فتاة في الثالثة والعشرين، يتقدم لخطبتها شاب، وترفض الفتاة، وفي جلسة أسرية يجري حديث في الموضوع، وإذا بإحدى البنات تقول لها: هذه فرصة بالنسبة إليك، وأنصحك بعدم تفويتها، وتؤيدها أخت أخرى، وتزيد: أتريدين أن تصبحي عانساً مثل فلانة.. وتنبري الأم: أنا وأبوك تقدمت بنا السن، ونريد أن نطمئن عليك قبل أن يأتي الأجل.. إن هذا الحوار يحمل الكثير من الأذى والإساءة لتلك الفتاة، وإن الرسالة التي تلقتها من أفراد أسرتها تشير إلى ذم مبطَّن، وإلى التقليل من شأنها. في الأسر المحترمة وفي الحوارات الراقية لا يُسمح بتناول القضايا بهذه الطريقة، وإن من الممكن أن تتحدث الأسرة في ميزات الخاطب، وفي مدى ملاءمته لابنتها، لكن يكون هناك إجماع على أن القرار في نهاية المطاف هو قرار البنت، وهي نفسها التي تختار التوقيت لذلك.

■ التأنق في التعبير :

أناقة اللسان هي ترجمة لأناقة الروح، والذين يستخدمون تعبيرات خشنة يحملون بين جوانحهم نفوساً لم يصقلها التهذيب على النحو المطلوب، وإن الناس صغاراً وكباراً ينتظرون اليوم من بعضهم المزيد من اللطف في الخطاب، والمزيد من الشفافية والذكاء اللمَّاح، وهذا بسبب التقدم الحضاري والعمراني الذي نشهده على كثير من الأصعدة، وهذه إشارات سريعة في هذه القضية:

١- يعتمد الحوار المخملي على التأنق في التعبير بوصفه العمود الفقري له؛ لأن المرء من خلاله يستطيع أن يناقش أعقد القضايا، ويطرق أكثر الموضوعات حساسية دون أن يؤذي أحداً، أو يسيء إلى أحد.

جمال التعبير وعفته ورمزيته أدب قرآني وأدب نبوي أيضاً، وما أرق وألطف قول الله -تعالى-: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، إن كل واحد من الزوجين هو بالنسبة إلى الآخر أشبه بالثياب التي يرتديها الناس، وفي الثياب معنى الوقاية ومعنى الستر، ومعنى الاقتراب الجسدي، وهذه المعاني الثلاثة لا تتوفر في أي علاقة إنسانية إلا في علاقة الرجل بالمرأة، إنه التعبير الأنيق الذي يشف عن الحقيقة بطريقة فريدة ومذهلة! وهذا هو نبينا ﷺ يدعونا إلى التأنق في اللفظ حين يقول: «الكلمة الطيبة صدقة» [رواه البخاري]؛ أي: الكلمة الحسنة التي تستلذها الأذن، والخالية من الأذى.

ونهى ﷺ عن التلفظ ببعض الكلمات لما فيها من قبح اللفظ، أو لما فيها من إشارة إلى الدونية، ومن ذلك ما ورد عنه أنه قال: «لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي» [متفق عليه].

لقس النفس وخبثها شيء واحد، وهو الغثيان، لكنه كره لفظ الخبث، وقال -أيضاً-: «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي» [رواه مسلم].

إن من الواضح أنه -عليه الصلاة والسلام- يريد رفع حساسية الإنسان المسلم نحو الكلمات المبتذلة أو ذات الوقع السيىء على

الأذن، وذلك بغية رفع مستوى الخطاب الإسلامي كله.

٢- تظهر أناقة المحاور في تعليقاته على مجريات الحوار وتصرفات المحاورين: هذه أم تتحدث في إحدى جلسات الأسرة عن انتشار الميوعة بين كثير من الشباب، وتؤكد أن ذلك لم يكن في الماضي بهذه الصورة، فقاطعها أحد أولادها قائلاً: هذا صحيح، لكن كانت هناك انحرافات خطيرة مكتومة، لا يسمح المجتمع بظهورها، وقد علقت الأم على كلام ابنها بقولها: أعرف أن من حقك أن تدافع عن الشباب أمثالك، ولكن ألا ترى من الأفضل أن يأخذ كل واحد منا فرصته كاملة في الكلام؟

هذا أب تحدث عن المثابرة وأهميتها في نجاح الإنسان في الحياة، وحين انتهى من حديثه أدرك أن بعض الأطفال الصغار لم يستوعبوا ما قاله، وعوضاً عن القول: أنا متأكد أنكم لم تفهموا بعض ما قلته، قال: والآن قبل أن ننهي اجتماعنا أشعر أنني لم أكن واضحاً بما فيه الكفاية، فهل يمكن أن تشرحوا لي ما فهمتوه مني؟

وهذا واحد من الأبناء ثارت ثائرته على جميع الموجودين من أفراد أسرته؛ لأنه شعر أنهم متحالفون ضده في اختياره لأحد الأصدقاء، وشعر الجميع أنه فقد توازنه، والتفت الجميع إلى الأب حتى يتدخل، وفهموا من خلال تعابير وجهه أنه سيقوم بالمهمة، فماذا فعل؟

أ- سمح للولد بأن يفرغ كامل الشحنة الكلامية التي لديه حتى يخفف من شدة توتره العصبي، وحين بدأ بتكرار ما قاله، قال له الأب: أظن أن الرسالة وصلت.

ب- قال الأب: طبعاً لا تعتقد أنك تخالف أسرتك في كل النقاط التي ذُكرت، فأرجو أن تحدد ما تتفق فيه مع أسرتك، وما تختلف فيه،

وتحدث الولد بما ينبغي.

ج- أنت تقول: إن صديقك فلان هو رجل جيد، أرجو أن تشرح لنا أكثر، حتى نقتنع معك.

د- بعد أن تحدث الفتى قال الأب: لي جلسة خاصة معك، وسأذكر لك بعض الأمور التي لا أرى من المناسب مناقشتها الآن ووافق الولد، وقاموا جميعاً إلى الغذاء.

٣- في الحوار المخملي يحاول صاحب التعبير الأنيق أن يستخدم الكثير من الملاطفات، ويكون سخياً في الكلمات التي تفيد الاستدارك، والتي تشتت ضغط النقد والملاحظات المباشرة، كما أنه يثري اللغة الاعتذارية لديه حتى لا يكون جو الحوار كئيباً ومنفراً: إحدى البنات لم تتصل بخالتها المريضة مرضاً خطيراً، ولم تسأل عنها، وقد صارت تتلقى من إخوتها الكثير من اللوم والعتاب على التقصير في أمر مهم كهذا، فماذا كان موقف الأم؟

قالت الأم: نحن جميعاً نعرف أهمية عيادة المريض ومواساته، ولاسيما إذا كان المريض عزيزاً كالخالة، فهي كما تعرفون في مقام الأم، وأنا أعتقد أن فلانة (ابنتها) لم تتصل بخالتها؛ لأن ذهنها كان مشغولاً بالاختبارات، إنني لا أذكر أن أحداً تحدث أمامها بهذا، ومن الواضح أنها اليوم لن تتصل بخالتها، ولكن ستذهب إليها، وتقدم لها المساعدة، أليس كذلك يا ابنتي؟ قالت: بلى، وفي الحقيقة أنني علمت أن خالتي مريضة، لكن كنت أظن أنها وعكة خفيفة، وإلا فليس هناك ما يمكن أن يؤخرني عن زيارتها.

في جلسة عائلية لإحدى الأسر المسلمة: اتهم أحد الأبناء أخته بأنها كذبت عليه حين قالت له: إن أَباها قدّم لها ساعة ثمينة هدية

عند إعلان نتائج الاختبارات، وقد سمع الأب بذلك، فقال: أنا لا أريد أن أقول الآن: هل قدمت لها هدية أو لا؟ لكن سأقول لكم: ما التعبيرات التي يمكن أن نستخدمها عوضاً عن نطق كلمة (كذب)، و(افتراء)، و(كذاب)...

وبعد تفكير وتداول تبين أن من الأفضل استخدام التعبيرات التالية:

- هذا خلاف الواقع.
- هذا مغاير للحقيقة.
- كلامك يحتاج إلى تدقيق أكثر.
- أظن أنك لو تأملت قليلاً؛ لوجدت أن هذا لم يقع.
- الذي أعرفه مختلف عن الشيء الذي تقوله.
- ربما اطَّلعت على شيء لم نعرفه جميعاً.

إن التأنق في التعبير يقوم على قاعدة: «ليس المهم ما قيل، لكن المهم كيف قيل»، نحافظ على الجوهر ونلطف اللفظ، ونراعي المشاعر، ولا نعد انتصار الأب على أولاده في نقاش شيئاً يستحق الاحتفال.

- نحن حين نتحدث ونتحاور نعبر بوضوح عما لدينا من مفاهيم وقيم وأخلاق وتهذيب.
- الحوار المخملي يكشف عن أناقة الذات وسمو الأسرة.
- ينبغي أن يكون التواصل وتقوية الرابطة الأسرية هو الثابت الذي تجري في ظله كل الحوارات الأسرية.
- حين يشكو الصغار إلى الكبار فقد لا يحتاجون إلى الحلول وإنما إلى التعاطف والمساندة الصادقة.
- التفاعل مع المحاور يشكل نوعاً من الكرم والسماحة؛ لأننا بذلك نشجعه على أن يقول كل ما لديه.
- يشكو المراهقون من أن كثيراً من حواراتهم مع آبائهم وأمهاتهم هو عبارة عن حفلة لتلقي المواعظ والتوجيهات المتنوعة.
- من المهم دائماً إضفاء روح الدعابة والمرح على كل أشكال التواصل الأسري.
- في الحوار المخملي تكون النعومة والمراعاة واللطف هي سيدة الموقف.
- يشكل التأنق في التعبير العمود الفقري للحوار المخملي.
- المهم في كثير من الأحيان ليس فحوى الكلام، ولكن طريقة النطق به.

الحوار بين الزوجين

لا بد للمرء من أن يشعر بالاغتباط لهذا الوعي المتنامى لدى الأزواج والزوجات حول نوعية العلاقة التي ينبغي أن تقوم بينهم، وقد بدأ كثير من الناس يدركون اليوم أن الذين يستطيعون تحقيق أكبر قدر من السعادة لهم، هم الذين يعيشون معهم، وهم أنفسهم أقدر الناس على أن يُلحقوا بهم أشد أنواع الأذى والشقاء، وليس هناك من هو أقرب إلى الزوجة من زوجها كما أنه ليس هناك أقرب إلى الزوج من زوجته، وما أجمل قول الله -عز وجل- في هذا المعنى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

إن التواصل والسكينة والطمأنينة والرحمة بين الزوجين هي ما ينبغي أن يسود العلاقة بينهما، فإذا غابت هذه المعاني -أو ضعفت- صارت الحياة الزوجية باهتة وفارغة من المضمون، وربما تحولت إلى عبء وإلى مصدر للهموم المتراكمة! هناك فيض من الدراسات التي تؤكد أن غياب الحوار بين الزوجين يعد من الأسباب الأساسية للشعور بالتعاسة وللانفصال والطلاق.

وهناك نسبة ليست صغيرة من الأزواج والزوجات الذين ينظرون إلى حياتهم الزوجية على أنها ورطة حقيقية، لكنهم لا ينفصلون عن بعضهم مراعاة لأولادهم، أو حتى لا تلوكهم ألسنة الناس، وهذا يعني أن استمرار حياتهم الزوجية فقد أسبابه الداخلية، وصار لأسباب خارجية. الخبر السار جاء في أحد الاستطلاعات حيث ذكر ١٠٠٪ من الأزواج والزوجات أن الحوار بين الزوجين أساسي في إسعادهما، وفي التغلب على المشكلات التي تواجههما، لكن يبدو أن المشكلة هي في قصور فهم كل واحد من الزوجين لطبيعة شريكه وحاجاته وتطلعاته، مما يجعل الحوار عقيماً في كثير من الأحيان، وعقمه يؤدي طبعاً إلى الإقلال منه؛ لأنه إذا ارتبط الحوار في ذهن أحد الزوجين بالتباعد وتفاقم المشكلات؛ فإنه لن يُقدِم عليه، ولن يرضى به. السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما المسوغ للحديث عن الحوار بين الزوجين بعد أن تحدثنا باستفاضة عن حوار جميع أفراد الأسرة بعضهم مع بعض؟

الجواب: هو أن ما هو أساسي في حوار الزوجين قد لا يكون أساسياً في الحوار مع الأولاد، وما هو مزعج في الحوار بين الزوجين قد يكون مقبولاً في الحوار الأسري العام، لكن يمكن القول: إن كثيراً من الآداب والملاحظات التي تحدثنا عنها في الحوار الأسري يكون مطلوباً في كل تفاوض وكل نقاش وحوار مهما كانت أطرافه، وسأركز هنا على ما أظن أنه يساعد الزوجين على أن يتحاورا الحوار الجيد والناجح الذي نتطلع إليه، حتى ينهضا بمسؤولياتهما التربوية على أحسن وجه، وحتى يعيشا حياة ملؤها السرور والسعادة والتفاهم:

■ حوار مقصود لذاته:

كنت قد ذكرت أن الحوار ينشأ حين يوجد نوع من الاختلاف بين شخصين فأكثر، وإلا فهو محادثة أو مسامرة، لكن نوعية العلاقة بين الزوجين وتفاوت طبيعتيهما وإدراكهما للأشياء تجعل من الحوار شيئاً مطلوباً على نحو ملحّ سواء أكان هناك اختلاف، أو مشكل، أو لم يكن. تدل إحدى الدراسات على أن المرأة تنطق بها متوسطه ثلاثة عشر ألف كلمة في اليوم، على حين أن الرجل يلفظ بها متوسطه ثمانية آلاف كلمة، أي أن المرأة في أصل فطرتها تميل للكلام أكثر من الرجل، كما أن كون الرجل يعمل في الغالب خارج المنزل؛ فإن المرأة تتوقع أن تكون لديه خبرة وأخبار وشيء يقوله أكثر مما لديها، هذا بالإضافة إلى أن المرأة تشعر بنوع من الأمان حين يحدثها زوجها، وهي بذلك تأخذ بمقولة (سقراط) حين قال لأحد الشباب: «تحدث حتى أراك». إنها من خلال كلام الرجل تطمئن أنه بخير، وتطمئن أنه لا يعاني من مشكلة خطيرة تتعلق بعمله ومصدر رزق الأسرة، وتطمئن إلى أنه لا يضمر لها أي نوع من الشر... لهذا كله؛ فإن المرأة تعتقد أن على الرجل أن يتكلم ويهيئ دائماً مادة للحوار والمحادثة و(الدردشة)، ولهذا كله أيضاً؛ فإن الرجل دائماً متهم بأنه صموت، أو مقصر في الحوار مع زوجته، وبقطع النظر عن صدق كل ما قلناه وواقعيته؛ فإن على الرجل أن يتحمل المسؤولية الأدبية نحو التواصل مع زوجته، كما يتحمل مسؤولية النفقة وتأمين مسكن للأسرة، ومن هنا فليس من حق الرجل -في الدرجة الأولى- أن يقول: إن الأمور بينه وبين زوجته على ما يرام، والتفاهم تام، ولهذا فلماذا الحوار؟ أو يقول: لا وقت عندنا والمشاغل كثيرة، وإذا جلسنا؛ فستتحدث بأمور مكررة،

وليس هناك شيء جديد عندي أو عندها يستحق أن نجلس من أجله.

إن الحوار بين الزوجين يشكل الحبل السري الذي تتغذى منه السعادة الزوجية، وهو مهم ليس لحل المشكلات، ولكن لمنع وقوع المشكلات، فمن الواضح أن المرأة تكره الركود في الحياة الزوجية وتريدها موَّارة بالحركة والتواصل والأخذ والعطاء والحوار، وإذا أحسَّت بأن شيئاً من هذا هو دون المستوى المطلوب، فإنها على استعداد لافتعال مشكلة من نوع ما حتى تعيد الحيوية للحياة المشتركة.

الحوار في نظر المرأة لمسة حنان تنتظرها من زوجها، ولهذا كله؛ فالمهم أن يتحادث الزوجان ويتسامرا، ويشكو كل واحد منهما للآخر، ويطلب مشورته في بعض مايعنيه.

في السيرة النبوية محادثات ومؤانسات ومسامرات -وأحياناً حوارات- كثيرة بين النبي ﷺ وبين زوجاته -رضي الله عنهن-، منها ما روي أن عائشة -رضي الله عنها- ذكرت أن إحدى عشرة امرأة جلسن وتعاهدن على أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً، وأخذت كل واحدة منهن تصف زوجها بكلام بليغ جداً، وكانت (أم زرع) هي آخر المتحدثات، وقد مدحت زوجها بما لا مزيد عليه، وحين انتهت عائشة من ذكر مسامرتهن، قال ﷺ لها: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع»، فقالت عائشة -رضي الله عنها-: «يا رسول الله! بل أنت خير من أبي زرع».

وقد وضع البخاري -رحمه الله- هذا الحديث في باب (حسن معاشرة الأهل).

وعند البخاري أيضاً: أن عائشة -رضي الله عنها-، قالت: قال

لي رسول الله ﷺ: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنتِ عليَّ غضبى»، قالت: فقلتُ: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «أما إذا كنت عنّي راضية؛ فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى، قلتِ: لا ورب إبراهيم!!»، قالت: قلتُ: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك!!

إذا تذكرنا أن فارق السن بين رسول الله ﷺ، وبين عائشة يزيد على أربعين سنة، وتذكرنا أنه أكرم الخلق وأفضلهم عند الله -تعالى- عرفنا روعة هذه المسامرة، وما فيها من لمسات الرقة والعطف والرعاية والتنازل، إنه المعلم الأكبر للعالمين .

يدل أحد استطلاعات آراء الأزواج والزوجات على أن ٥٩٪ من الأزواج يعتقدون أن لدى زوجاتهم قدراً كبيراً من الخبرة في قضايا يحتاجون فيها إلى قرار في مقابل ٨٤٪ من النساء، وعلى الصعيد العملي فقد ذكر ٧٦٪ من النساء أنهن يستفدن من خبرات أزواجهن في المسائل التي تحتاج إلى قرار، وذلك في مقابل ٤٧٪ من الأزواج.

وهذا يدل على أن النساء يثقن بجدوى الحوار مع الأزواج أكثر من ثقة الأزواج بجدوى الحوار مع الزوجات، وهذا ملموس، لكن إذا نظرنا إلى الواقع؛ فإننا نجد أن الزوجات ينسحبن من الحوار، ويضقن به ذرعاً أكثر من الرجال، وهذا التناقض يحتاج من النساء إلى الانتباه والمعالجة.

■ حتى ينجح الحوار:

في إمكاني القول: إن من الصعب أن نفصل في الحياة الزوجية بين المحاورة والمحادثة وأوقات الفراغ، حيث إن عيش الزوجين مع بعضهما وكون كل واحد منهما يشكل المصدر الأساسي لإيناس

صاحبه، وإدخال البهجة عليه، ورعايته، وتلمس همومه؛ فإن هذا يجعل تنظيم العلاقة بينهما أمراً صعباً، وغير مرغوب فيه، لكن دعونا نقول أيضاً: إن نجاح الحوار والمحادثة بين الزوجين والنجاح في الاستفادة من أوقات الفراغ، والنجاح في مواجهة المشكلات التي تعكر صفوهما، يحتاج في نظري إلى شيئين مهمين:

الأول: تحديد الهدف الجوهري من التواصل -بكل أشكاله- بين الزوجين.

والثاني: هندسة الحوار، والعمل على إخراجه بالشكل المطلوب حتى يستمر ويثمر ويعطي.

أما على صعيد تحديد الهدف من التواصل؛ فأرى أن يكون الهدف الأساسي الذي يكون حاضراً في كل شكل من أشكال التواصل هو تقوية العلاقة، العلاقة بين عقلين، وروحين، وقلبين، ووضعيتين، ومصلحتين، ورؤيتين للحياة عامة، ومستقبل الأسرة خاصة، وحين تتحسن العلاقة بين الزوجين؛ فإن هذا يعني تحسّن المناخ العام للأسرة، ويعني تفهماً أفضل لرغبات وحاجات كل منهما لصاحبه، وهذا يؤدي إلى بناء جو جيد من الثقة المتبادلة، وحين يتوفر هذا الجو؛ فإن كثيراً من المشكلات يتبخر من تلقاء نفسه، وما يتبقى يكون حله سهلاً، أو يمكن تحمله ومعايشته. إن عدم إدراك كثير من الزوجات والأزواج لهذا المعنى جعل حوارهما وتحادثهما وجلوسهما عبارة عن مناسبة للمنابذة والشكوى والتأفف والملاحاة... وبعد ذلك يندم كل واحد منهما على فتح فمه وقلبه للآخر! الزوج مرة أخرى مسؤول على نحو أساسي عن تقوية العلاقة بزوجته، فهي تنتظر من لفتات رعايته وحنانه أضعاف ما ينتظر منها، كما تتوقع منه أن يفهمها دائماً بطريقة

أفضل، وسواء أكان ذلك منها منطقياً أو غير منطقي، فإن عليه أن يحقق تلك التوقعات ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وأما على صعيد هندسة التواصل بين الزوجين، فأحب أن أشير إلى النقاط التالية:

١ - الاتفاق على وقت الحوار والمحادثة، بمعنى ألا يُرغم أي واحد من الزوجين شريكه على الجلوس: «هناك أمر مهم جداً، اتركي كل شيء وتعالي..»، «أريد أن أتحدث معك الآن، وأظن أن ما سأقوله أهم بكثير من الرد على الاتصالات التي لا تتوقف عن جوالك»... هذا غير جيد؛ لأن كل واحد منهما سيأتي إلى الحوار على نية إنهائه في أقصر مدة ممكنة، وحوار كهذا، عدمه خير من وجوده، لكن سيكون الأمر جيداً لو قال: متى تحبين أن نشرب الشاي؟ هي: بعد ساعة من الآن. أرجو ألا ننسى القاعدة الذهبية في العلاقات (الجذب وليس الإكراه)، فالمحادثة الممتعة والمفيدة هي التي تتم بناء على تجاذب الطرفين أو جذب أحدهما للآخر، وليست التي تتم بسبب الضغط والإكراه.

٢- إذا جلس الزوجان للحوار في قضية من القضايا أو لمعالجة مشكلة؛ فإن من المهم أن يمنحا أنفسهما الوقت الكافي لذلك، حين يكون الحوار في حاجة إلى ساعة، ونخصص له نصف ساعة، فإن المتوقع أن تكثر مقاطعة المتحدث، وأن يشعر الزوجان بضغط الوقت، فيتخذان قرارات مستعجلة وغير حكيمة، وكثيراً ما تتسع شقة الخلاف بينهما، ولهذا فإن من المهم أن يجري الحوار والذهن صافٍ، والوقت شبه مفتوح.

٣- العلاقة بين الزوجين بالغة التعقيد، فهي عميقة وحميمة

وتلقائية وسهلة، كما أنها في الوقت نفسه هشة ومركبة وسطحية وحساسة، وتقوم على عدد من التوازنات الخفية، ولهذا؛ فإنها تحتاج إلى إدارة ورعاية خاصة، وهي عموماً في حاجة إلى الخلق الكريم أكثر من حاجتها إلى العقل النيِّر والعلم الغزير. الزوجان هما أقرب شخصين لبعضهما في العالم، ومع ذلك؛ فلا بد من ترك مساحة لممارسة الخصوصية على كل الأصعدة ودون استثناء، الزوجة لا تريد أن يتحدث زوجها عن الخلاف بين أمها وأبيها، الزوج لا يحب أن يجلس على المائدة يومياً، الزوجة لا تحب الأكلة الفلانية... كل هذا خصوصيات، وينبغي احترامها.

إن الحوار هو علاقة إنسانية، أي هو تأثير الناس في الناس، ولهذا فينبغي أن يتوقع الزوجان من وراء الحوار أن يحدث تغير في آرائهما ومواقفهما، ولا يصح النظر إلى ذلك على أنه نوع من الهزيمة أو عدم النضج في الرأي، ورحم الله الإمام الشافعي حين كان يقول: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب»، وحين كان يقول: «والله ما ناظرت أحداً إلا أحببت أن يظهر الحق على لساني أو على لسانه». وحين يفوز أحد الزوجين في حوار؛ فإن عليه أن يلطِّف من مرارة ذلك على صاحبه: «قد غابت هذه النقطة عن بالي»، «كنت أظن أن الأمر كذا، ثم تبين خطؤه»...؛ لأن المهم هو تدعيم العلاقة بين الزوجين قبل أي شيء آخر، كما ذكرت من قبل.

إن من رعاية العلاقة بين الزوجين: البعد كل البعد عن كل ما يُشعر الطرف الآخر بالدونية أو الإهانة، هذا زوج يقول لزوجته: «لو لم أتزوجك كنت الآن عانساً في بيت أهلك»، وهذه امرأة تقول لزوجها: «أهلي وافقوا عليك شفقة على حالك، وإلا فهناك ألف

رجل يتمنى كل واحد منهم لو ظفر بي»، هذا رجل يقول لزوجته: «ابنك فلان يظهر أنه سيكون لصّاً في المستقبل، ويبدو أنه سيتعلم ذلك من أخيك فلان»، وهذه امرأة تقول لزوجها: «ابنتك فلانة فاشلة في الدراسة مثل أخواتك»..، وهكذا.. وهكذا.. إن هذا يدمر الحياة الزوجية، ويجعلها هيكلاً خالياً من المعنى.

هناك عدد من (اللاءات) التي يجب أن تسود في العلاقة بين الزوجين، منها:

(لا) لجعل الحوار مناسبة لتقديم الطلبات، فقد انطبع في حسّ كثير من الأزواج والزوجات بأن مناداة شريكه لجلسة حوار أو محادثة ودعوته بلطف ستعني التمهيد لطلب مال أو خدمة، أو لطلب الصفح عن خطأ وقع فيه أحد أفراد الأسرة، أو لأي طلب آخر، مع أن هذا قد يحدث، لكن لا يصح أن يكون حاضراً في معظم الحوارات.

(لا) للتهديد: إذا لم نجلس لنتحدث في الموضوع الفلاني، فسأذهب إلى بيت أهلي، ويقول الزوج: إذا لم تقولي ما الذي جرى في غيابي أمس؛ فلن تري شيئاً طيباً، هذا مرفوض؛ لأنه يضعف العلاقة بين الزوجين، ونحن نريد لها أن تزيد صلابة.

(لا) للتنهد والهمهمة والغمغمة أثناء الحوار، فهذا يعطي انطباعاً للطرف الآخر بأن الكلام غير مفيد، وبأن شريكه لم يعد يحتمل ويطيق ما يجري.

(لا) لمجابهة الأحلام والطموحات وكسر التطلعات: الزوج أحلم بأن أرى أولادي جميعاً بين الرجال العظماء المرموقين، المرأة: ما أكثر ما تحلم، كن واقعياً وكفى أوهاماً، ابنك فلان نال الثانوية العامة بصعوبة، وابنتك فلانة لا تحب العلم، ولا تريد دراسة المتوسطة،

وابنك فلان... هذا غير ملائم، وسيدفع بالزوج في اتجاه الصمت، ماذا لو قالت المرأة: وأنا مثلك أحلم، ولكن تعال لنفكر كيف نساعدهم على أن يكونوا كما نحلم جميعاً.

(لا) لممارسة دور الضحية والانسحاب من الحوار بحجة المحافظة على صفاء جو الأسرة، أو راحة أعصاب الشريك: بعض الأزواج والزوجات يضيق ذرعاً بالحوار، ويجد نفسه مغلوباً أو متورطاً، فما يكون منه إلا أن يترك الجلسة، ويقوم معلناً الانسحاب من أجل عدم إزعاج غيره، فهو في نظره يضحي ويتنازل، ولا يعرف أنه بذلك يؤذي غيره، ويدفع بالأمور نحو الأسوأ.

- الرجل والمرأة كائنان مختلفان:

مهما تحدثنا عن وجوه الاتفاق بين الرجل والمرأة، وعن وحدة الثقافة وما يؤمِّنه الاعتقاد والتدين من رؤية مشتركة، فالحقيقة الناصعة هي أن هناك اختلافاً في التركيب الجسمي والنفسي والعقلي بين المرأة والرجل، وهذا أدى إلى تباين الوظائف والأدوار في الحياة، وتباين الطموحات والتطلعات، وتباين المعارف والخبرات... وحين يكوِّن الرجل والمرأة كياناً واحداً هو الأسرة؛ فإن هذا يعني تعارض الكثير من الأذواق والرغبات والرؤى والمصالح والمعايير، ويعني كذلك: أن على الزوجين أن ينظرا إلى هذا الاختلاف على أنه محور ومَعْقِد للابتلاء حتى يظهر بوضوح كيف يتصرف كل واحد منهما التصرف السويّ والملائم، رغم عدم اقتناعه به على نحو كامل، وحتى يظهر كذلك ما لدى كل منهما من تقوى وورع وتهذيب وخُلُق وفهم...

إن الاختلاف بين الزوجين يمكن أن يدّمر الحياة الأسرية كما

يحصل في حالات كثيرة، ويمكن له أن يُثري الحياة الأسرية، ويكون مدخلاً للشعور بالتعاون والتكامل، على قاعدة: «نختلف لنأتلف».

ولعلي أشير إلى شيء من وجوه الاختلاف بين الزوجين عبر الحروف الصغيرة الآتية:

١- من الواضح أن شعور الرجل بالحاجة للحوار مع زوجته غالباً ما يكون أضعف من شعور المرأة، ولهذا فإن الرجل حين تدعوه زوجته للتحدث في أمر من الأمور لا يخطر في باله أن من أهداف هذه الدعوة تحقيق شيء من الإشباع العاطفي لديها، وإيجاد فرصة مناسبة حتى تتحدث، وتجد من يستمع إليها، ولهذا فإنه يريد أن يعرف بدقة: لماذا الحوار؟ وعن أي شيء سيكون؟ وما الزمن الذي يتطلبه؟ وإلى أي شيء يمكن أن يفضي في نهاية المطاف؟ أي أنه يبحث عن ملابسات الحوار كما يبحث متفاوضان عن شركتين حين يريدان عقد صفقة من الصفقات.

المرأة في (اللاوعي) لديها لا تريد حلولاً جذرية، ولا تريد أن تمضي الأمور وفق منطق صارم، كما أنها لا تريد أن تعرف بدقة الهدف من الحوار ولا مآلاته؛ وهذا يشكل نقطة جوهرية في فشل الحوار بين الزوجين، وبما أن الفهم هو بداية كل الحلول؛ فإن على الرجل وعلى المرأة أن يحاولا مراعاة بعضهما، وسلوك المسلك الذي يلائم الجميع، على المرأة أن تقول لزوجها: أود أن نجلس نصف ساعة لمناقشة موضوع كثرة خروج ابننا فلان من المنزل، وإن لديَّ بعض الأفكار المفيدة في هذا، وعلى الرجل من جهته أن يتوقع للحوار أن يأخذ وقتاً أطول، وأن لا يقتصر على موضوع واحد، وقد لا يكون لدى زوجته سوى فكرة واحدة وليس مجموعة أفكار، وعليه أن يتقبَّل كل هذا

برحابة صدر، فهذا ما يلاقيه كل رجل في كل مكان من العالم.

٢- حين يواجه الرجل مشكلة خارج المنزل، في عمله أو مع بعض الناس، فإن من طبيعته الميل إلى التكتم عليها، وعدم مفاتحة أهله بها، وذلك لأنه لا يريد أن يثير قلقهم، وهو يعرف أنهم في الغالب لا يستطيعون مساعدته، ولا يعرفون ما يحدث هناك، ولهذا فإنه يحب حينئذ أن يعتزل أهل بيته، وأن ينصرف إلى التفكير على نحو منفرد.

المرأة بما لديها من حب لزوجها وبما لديها من نبل وشفقة تود أن تعرف تفاصيل ما حدث معه، وتعرض ما لديها من مقترحات، لكنها تفاجأ برفض زوجها لذلك التعاطف، وبرودة استقباله لكلامها، فيؤدي ذلك إلى انزعاجها... والموقف الصحيح الذي كان عليها أن تقفه هو ترك الرجل وشأنه، وتقديم الدعم النفسي له: أنا أعتقد أن المشكلة عابرة وصغيرة، وأنت قد تجاوزت ما هو أكبر منها، وعلى العموم حين تجد لديك رغبة لنتناول مع بعضنا فنجان قهوة فأخبرني، وإذا كنت تود أن أرسل لك بشيء الآن أرسلته... أما المرأة؛ فإنها حين تواجه مشكلة، فإنها تجد في التحدث إلى زوجها أو أولادها أو صديقاتها ما يخفف من كربها وتأزمها، وهي تشعر أنها حين تحكي ما جرى لها وما عليها أن تفعله، بأنها تروّض الانفعالات المزعجة التي تعاني منها، إن المرأة في هذه الحالة لا تنتظر في المقام الأول حلولاً لمشكلتها، لكنها تبحث عمن يُصغي إليها، والرجل لا يعرف -في الغالب- هذا المعنى، ويقيس زوجته على نفسه، ويتركها تواجه مشكلاتها وحدها، مما يؤدي إلى عتبها عليه، وشعورها بأنه غير مهتم، ولا يُعتَمد عليه في الشدائد، إن هذه المعرفة بتفاوت الطباع والتطلعات تفتح لنا سبلاً للفهم والتفاهم.

٣- من الواضح أن المرأة تُظهر قدرة على الكلام والنقاش أكبر مما يُظهره الرجل، وتُظهر قدرة على الخروج عن الموضوع الأصلي في الحوار، ثم العودة إليه بسلاسة أكبر مما يُظهره الرجل، ولهذا؛ فإنه حين يتحاور الزوجان فإن المرأة تكثر من مقاطعة الرجل، وتظن أنه ليس في ذلك أي مشكلة؛ لأنها لا تجد صعوبة في مواصلة حديثها والتفاهم مع من أمامها، ولو كثرت المقاطعات والاستطرادات، وحين توجه إلى الرجل سؤالاً أثناء الحوار، ويبطء عليها في الجواب؛ فإنها تستغرب من ذلك، وتسارع إلى القول: إنها أفحمته، ولم يعد لديه ما يقوله، وفي بعض الأحيان تظن أنه من خلال تأخره في الجواب يبحث عن مخرج أو حيلة أو شيء من هذا القبيل! إن على الرجل أن يعوّد زوجته التكلم ببطء، والتفكير في الكلمة قبل النطق بها، وعليهما أن يتعوَّدا عدم المقاطعة لبعضهما أثناء التحدث والحوار، ولا سيما عند بحث القضايا المهمة والمشكلات الملحة؛ لأن بحثها يحتاج إلى هدوء وتركيز.

إن المرأة وهي تحاور تستجيب أكثر لعواطفها، وهذا يجعل إطلاقها للأحكام أسرع، وربما حسمت بعض القضايا الكبرى -طلب الطلاق مثلاً- بسرعة البرق، وليس الرجل كذلك. المطلوب من الأزواج تعاطف وتواصل أفضل مع نسائهم في أوقات الأزمات، ومطلوب من المرأة أن تدرك أن بطء زوجها أثناء الحوار وأثناء إصدار القرارات هو لمصلحة الجميع.

إن الحرص على المزيد من الفهم المتبادل سوف يساعد الزوجين على تجاوز الصعاب والأزمات، وسوف يجعل حياتهما الأسرية أهنأ وأجمل وأهدأ.

نقاط للتذكر

• دراسات كثيرة تؤكد أن غياب الحوار بين الزوجين من العوامل الأساسية في الشعور بالتعاسة وحدوث الطلاق.

• الحوار بين الزوجين مقصود لذاته وصمت الزوج مزعج لزوجته، ولهذا فإن على الزوج أن يتحدث إلى زوجته، ولو لم يكن لديه شيء يقوله.

• الحوار يقي الحياة الزوجية من كثير من المشكلات، ويطرد عنها الركود والملل.

• يحتاج نجاح الحوار بين الزوجين إلى تحديد الهدف الجوهري من التواصل، وشيء من الهندسة والإخراج لذلك التواصل.

• لا يصح إرغام أحد الشريكين على الدخول في حوار لا يريده، وإذا كانت هناك مشكلة؛ فلا بد من أن يمنحا أنفسهما الوقت الكافي لحلها.

• العلاقة بين الزوجين عميقة جداً وهشة جداً، وهي تحتاج إلى رعاية دائمة.

• لا للتهديد، ولا للابتزاز العاطفي، ولا لجعل الحوار مناسبة لتقديم الطلبات.

• على الزوجين الصبر على الحوار، وإلغاء فكرة الانسحاب منه نهائياً.

• الرجل والمرأة كائنان مختلفان، ونجاحهما في الحوار يتوقف على فهم كل منهما لطبيعة صاحبه.

هذا ما أحببت أن أقوله في هذه الرسالة، وقد كان المقام يتطلب أكثر مما كتبت، لكن الحرص على الاختصار وتقديم وجبة ثقافية وتربوية خفيفة هو الذي دعاني إلى التوقف عن كتابة المزيد.

والحمد لله رب العالمين.

مراجع مختارة

- «أخلاقيات الحوار»، تأليف: د. عبد القادر الشيخلي عمان - دار الشروق - ط أولى عام ١٩٩٣.
- «التربية بالحوار»، د. عبد الكريم بكار، دمشق - نحو القمة (أصل الكتاب محاضرة ألقاها المؤلف).
- «حول مهارات الاتصال»، د. سامي عبد العزيز (مقال منشور على الإنترنت).
- «الحوار: كيف نتجنب السكتة الكلامية»، محمد أحمد عبد الجواد مصر، دار التوزيع الإسلامية - ط أولى عام ١٤٢٦هـ.
- «الحوار المتمدن» بقلم إحسان طالب، (مقال منشور على الإنترنت).
- «العادات السبع للأسر الأكثر فعالية»، د. ستفن كوفي، الرياض، مكتبة جرير؛ ط خامسة عام ٢٠٠٨.
- «فن إدارة الخلافات الأسرية»، بقلم: دعاء ممدوح، (مقال منشور على الإنترنت).
- «قواعد ومبادئ الحوار الفعال»، إعداد: عبدالله بن عمر الصقهان ومحمد بن عبدالله الشويعر - الرياض، مركز الملك عبدالعزيز للحوار

الوطني - ط أولى عام ١٤٢٦هـ.

● «كيف ينشئ الآباء الأكفاء أبناء عظاماً»، بقلم: د.آلان ديفيد سون وروبرت ديفيد سون - الرياض، مكتبة جرير، ط ثالثة، عام ٢٠٠٦.

فهرس الموضوعات